حول ترجمة المرحوم

الإمام العلامة الشهير والعارف الكبير

فضيلة سيدي الوالد

الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

بقلم ولده

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح
حلب - أقيول

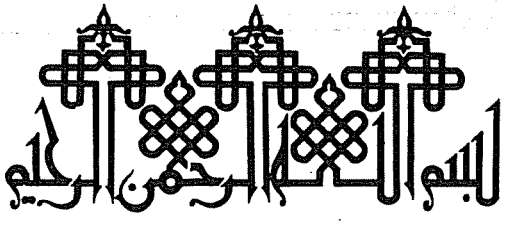

أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب سهل كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، سيد كبار المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي بيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه لهو السميع العليم

آمين

حول ترجمة المرحوم

الإمام العلامة الشهير والعارف الكبير

فضيلة سيدي الوالد

الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني

رضي الله تعالى عنه

بقلم ولده

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح

حلب - أنيرول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

مطبعة التوفيق
حلب - هاتف ٣٣٣١٥٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين .

وبعد :

فَقَد طلب مني كثير من الأحباب والأصحاب ، مِراراً وتكراراً ، أَنْ أُبَيِّن لهم شيئاً عن بداية نشأة سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين ، وَعَنْ حَياته العلمية ، وَعَنْ وظائفه الدينية ، وَعَن مِنْهاجه في دُروسه ، ومحاضراته العلمية والعرفانية ، القائمة علىٰ الحجج البالغة ، والبراهين الدامغة ، الواردة في الآيات القرآنية ، والأحاديث الشريفة النبوية .

وقد استخرت الله تعالىٰ في ذلك ، فشرح الله تعالىٰ صدري لذلك ، فذكرت في هذه الصحف ما تيسر لي من ذلك ، ولم أستقص جميع ما هنالك . والحمد لله رب العالمين .

وإنّني أسأل الله العظيم ، بجاه سيدنا محمد ذي الخلق العظيم صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، أَنْ يوفقنا سبحانه وتعالىٰ لما يحبه مولانا ويرضاه ، وأنْ نكون مِنَ الذين أَيَّد الله تعالىٰ بهم الدين ، ونفع الله تعالىٰ بهم العباد والبلاد ـ آمين .

وصلّىٰ الله العظيم ، علىٰ سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين ، وعلىٰ آله وآلهم ، وعلينا معهم أجمعين ، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم .

مولده رحمه الله تعالىٰ
ورضي عنه وعنا به

وُلد رحمه الله تعالىٰ سنة أربع وسبعين ومائتين وألف ، من تاريخ الهجرة ـ في مدينة حلب ـ وتوفي في حلب السادس والعشرين من شعبان سَنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وألف للهجرة النبوية .

وقد بَشَّر بِوِلادَته وسَماه باسمه محمد نجيب ؛ بَشر بذلك الشيخ العلامة الكبير ، والعارف بالله الشهير ، صاحب الكرامات والمكاشفات ، فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني رضي الله عنه ، وكانت جَدَّتي أم والدي حاملاً به .

وذلك أَنَّ جَدِّي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ السيد الحاج محمد بن يوسف سراج الدين ، كان من المقربين المحبوبين عند فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ، فَرأىٰ جَدِّي في منامه أَنّ فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ أَلْبَسَهُ عَمَامته المباركة ، فاسْتيقظ جدي فرحاً مسروراً ، وذهب مبكِّراً إلىٰ الشيخ الكبير أحمد الترمانيني رضي الله عنه وأخبره عمَّا رأىٰ في المنام .

فقال له فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ : سيولد لك غلام هو الآن في بطن أمه ، ويَلبس العمامة ـ أي : عمامة الشيخ أحمد الترمانيني ـ.

وقال لجدي : وتُسَمِّيه مُحمد نجيب سراج الدين .

فلما وُلد والدي رحمه الله تعالىٰ حمله وذهب به والده ـ أي : جدي ـ

إلىٰ حضرة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ، فقرأ عليه ، ودعا له ، وبَرَّكَ عليه ، وبشر لجدي أنه سيكون له شأن كبير . والحمد لله رب العالمين .

وكان جدي رحمه الله تعالىٰ كثيراً ما يَذهب بوالدي رحمه الله تعالىٰ إلىٰ حضرة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ .

وقد ذهب به جدي إحدىٰ المرات ـ ووالدي كان صغير السن ـ إلىٰ الجامع الأموي ليلتقي بالشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله ويطلب منه الدعاء ، وكان ذلك في العشر الأخير من رمضان المبارك ، فَكان والدي رحمه الله تعالىٰ يَتحدث عن ذلك اللقاء ، وما شاهده من مهابة فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني وبركاته رحمهم الله تعالىٰ أجمعين .

نشأة سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ والبيت الذي تربّىٰ فيه

نشأ والدي رحمه الله تعالىٰ في بيت صلاح وتقوىٰ وورع ، وتمسّك بالشريعة ، ومحبة العلم والعلماء العاملين .

وذلك أَنّ جَدِّي السيد الحاج محمد مُنذ أوَّل شبابه قد لازم دُروس الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ، ولازم جميع مجالسه الخاصَّة والعامَّة ، وَصَدق في متابعته لفضيلة الشيخ أحمد ، واستفاد مِنْ علومه ومعارفه ، وآدابه ، وسَيره في السلوك وطريق التعبد والتقوىٰ ، وقد رأىٰ فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ رأىٰ من جدي الإخلاص والصدق في التقوىٰ والعبادة ، كما رأىٰ منه صدق المحبة للشيخ والإخلاص معه .

ومن ثَمَّ صار جَدي السيد الحاج محمد رحمه الله تعالىٰ مِنْ خاصَّة الشيخ ومُقَرَّبيه .

فزوَّج فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ابنته التقية الولية الصالحة لولد جدي الحاج محمد رحمه الله تعالىٰ ، وذلك الولد وهو يوسف عمي أخو أبي الكبير ، وأكبر منه سناً وأكبر مِنْ بقية أعمامي[1] .

وزادت المحبة والألفة ، فصار فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ يكثر الزيارة لدار جَدّي الحاج محمد ، وزيارة ابنته التي هي في دار جدي رحمهم الله تعالىٰ .

وهكذا كان جدي الحاج محمد يُكثر زيارة دار الشيخ أحمد رحمه الله تعالىٰ ، ثم بدا لفضيلة الشيخ أحمد رحمه الله تعالىٰ ـ لِمَا رأىٰ مِنْ صدق جدي وإخلاصه ومحبته وورعه ـ بَدا لفضيلة الشيخ أحمد رحمه الله تعالىٰ أَنْ يُشارك جدي في تجاراته ـ فإن فضيلة الشيخ كان ذا يسر ومال ـ فقبل ذلك جدي ، وأشركه في تجاراته الكبرى التي يجلبها من البلاد .

وكان جدي الحاج محمد رحمه الله تعالىٰ واسع التجارة ، يذهب إلىٰ أنطاكية وَبَلْدة عنتاب ومعه ابنه السيد يوسف الذي هو أكبر أعمامي ، فيشتريان كميات واسعة كبيرة مِن قلب الفستق ، والجوز ، واللوز ، والزبيب ، والتين اليابس ، والعسل ، والدبس ، وما وراء ذلك فيجلبها إلىٰ مدينة حلب ، ويوزعها علىٰ البياعين ، فيبيعهم ذلك بالجملة ، ليبيعوها بالمفرق ، ثم صار جَدّي يرسل ولده الحاج يوسف لجلب تلك التجارات لتمام خبرته .

---

(١) فولدت له الشيخ الفاضل الفقيه العلامة أحمد سراج الدين الترمانيني ، وكان كثير التردد والزيارة لسيدي الوالد ، لأنه عمه ، وكان واسع الاطلاع علىٰ مجلة الأحكام الشرعية الإسلامية ، وعلىٰ شروحها ، وكان مَرجعاً في فهمها وبيانها رحمه الله تعالىٰ .

وقد كان جدي رحمه الله تعالىٰ يستشير فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني في بيعها ، وتحديد أسعارها ، ونسبة أرباحها .

فكانت تلك الأصناف تُطلب علىٰ حسب الفصول ، فكانت الأصناف التي يحتاجها أكثر الفقراء كالزبيب والتين اليابس ونحو ذلك ، إذا ارتفع ثمنها ولو قليلاً يقول جدي رحمه الله لفضيلة الشيخ أحمد رحمه الله تعالىٰ : إنَّ الصنف الذي أكثر الفقراء يحتاجونه قد ارتفع ثمنه شيئاً قليلاً ، فيقول له الشيخ أحمد رحمه الله تعالىٰ : بِعْهُ ولا تَتَوَقَّف رحمةً بالفقراء والمساكين .

وأمّا الأصناف التي يتطلبها أكثر الأغنياء مِثْل قَلب الفستق وما هنالك ، يقول الشيخ أحمد رحمه الله تعالىٰ لجدي : لا تبعها حتىٰ يرتفع سِعْرها أكثر من ذلك ، فإنَّ أكثر الراغبين فيها هم أغنياء ـ وهكذا .

وقد بارك تعالىٰ في تلك التجارات ، فكان جدي رحمه الله تعالىٰ من الأغنياء الأثرياء ، والكرماء الأسخياء ، مشهوراً بفعل الخيرات والمبرات .

وهكذا فقد نشأ سَيّدي والدي الكريم العلامة الشيخ محمد نجيب سراج الدين ، وتربّىٰ في بيت صلاح وتقوىٰ ، وتمسك بأحكام الشريعة ، ومحبة العلم والعلماء ، والأولياء والصلحاء .

وقد زاد في صلاح ذلك البيت وتقواه ، وتمسكه بأحكام الشرع وأمور الدين ، زاد في قوة ذلك ملازمة جدي السيد الحاج محمد رحمه الله تعالىٰ العلامة الشهير والعارف الكبير الشيخ أحمد الترمانيني ، وكثرة حضور دروسه ومجالسه العامة والخاصة ، وكثرة زيارة الشيخ الكبير أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ، وتردده إلىٰ بيت جَدي الحاج محمد ـ بسبب المصاهرة ، والمحبة الصادقة الخالصة بينهما ـ وكثرة توجيهات العلامة

الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ التي سَرىٰ سِرُّها في جميع آل بيت السيد الحاج محمد جدي رحمه الله تعالىٰ : رجالهم ونسائهم .

وقد كانت لسيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالىٰ أخوات بعضهم أكبر منه سناً قد أدركن فضيلة العلامة الشيخ أحمد الترمانيني وزياراته ، وسمعن منه التوجيهات والنصائح ، ولقد كانت عماتي أخوات سيدي والدي الكريم : علىٰ تمكن وقوة في الصلاح والتقوىٰ ، والخشوع والخشية من الله تعالىٰ ، والتمسك والتنسك ، وسَرىٰ صلاحهن وتقواهن في أولادهن وبناتهن .

وقد تزوج بنت عمتي الكبرىٰ ، فضيلة الشيخ العلامة الكبير ، والعارف الشهير ، الأستاذ محمد سعيد الإدلبي الرفاعي رضي الله عنه ، ونفعنا به ، فإنه قد تزوج بِنْتَ عَمَّتي الكبرىٰ ، وكانت امرأة صالحة تقية كَأُمِّها ، فولدت له ابنهُ الكريم الأستاذ العلامة الكبير ، الفقيه الورع ، التقي النقي ، الشيخ أحمد الإدلبي الرفاعي رحمه الله تعالىٰ ، وقد كانت بيني وبينه صُحبة ومحبة في الله تعالىٰ . والحمد لله رب العالمين .

وقد نفعني الله تعالىٰ بوالده الكريم فضيلة الشيخ محمد سعيد الإدلبي الرفاعي رضي الله عنه ، وذلك أَنَّه كان يزور والدي الكريم ، وأنا أستقبله وأُسَنِّدُه قبل أَنْ يصل إلىٰ باب الدار ، كما أمشي معه مُوَدّعاً ، وكان يدعو لي كثيراً .

وكان والدي الكريم رحمه الله تعالىٰ يزوره وأكون معه في مواسم الأعياد وغيرها ، وكان بينه وبين والدي الكريم إخاء ومحبة وقرابة ووفاء ، ومدح وثناء ، بحق وصدق ، وكل منهما يُعظم الآخر ويحترمه ، ويلتمس دعاءه ، والحمد لله .

نفعنا الله تعالىٰ بهما ، ورضيَ عنَّا بهما ، وأفاض الله تعالىٰ علينا مِنْ بركاتهما ، وبركات جميع العلماء العاملين ، والأولياء الصالحين ـ آمين .

وكان والدي الكريم يُثني علىٰ العلامة الشيخ محمد سعيد الإدلبي الرفاعي بالعلم وبالولاية ، والصلاح والتقوىٰ .

وكان الشيخ العلامة الكبير محمد سعيد الإدلبي كثير الزيارة لسيدي الوالد رحمهما الله تعالىٰ .

* * *

كلمة موجزة حول
العلامة الكبير والعارف الشهير
الشيخ أحمد الترمانيني
شيخ جدي ووالدي رحمهم الله تعالىٰ

الشيخ أحمد الترمانيني هو العلامة الكبير ، والعارف الشهير ، والمعروف بعلومه وبولايته ، وكراماته ومكاشفاته ، وله مخطوطات علمية متنوعة قيمة ، وقد أطلع عليها سيدي والدي الكريم ، ودرسها دراسة جدية ، وكان يقول : قد انتفعت بها كثيراً ، علماً وعملاً ، وصدقاً وإخلاصاً ، لأن روحانية فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني وأسراره سارية في كلامه رضي الله عنه .

وإنَّ كرامات الشيخ أحمد الترمانيني ومكاشفاته هي كثيرة وشهيرة ، يعلمها أهل عصره وغيرهم ، وَأَنَا أَذكر بعض الكرامات والمكاشفات ، نقلاً عن بعض مريدي الشيخ الذين أدركتهم ، وأنا صغير السن .

وذلك أَنَّ سيدي والدي الكريم كان يَذهب إلىٰ زيارة أحد مريدي الشيخ أحمد ، وكان ملازماً له ويخدم نعل الشيخ ويحملها إذا دخل الجامع الأموي لِيُدَرِّس ، ويضعها ليلبسها إذا أراد الخروج من المسجد ، وكان هذا المريد الصادق كبير السن ، وقد انحنىٰ ظهره ، وقارب المائة سنة ، وكان يلبس العمامة الخضراء ، فكان والدي الكريم يزوره ومعه الشيخ كامل مشنطط زاده ، أحد إخوان والدي وتلامذته الصادقين القدماء ، العالم الفاضل ، والعابد الصالح المخلص ، وكان والدي

الكريم يأخذني معه وأنا صغير لأنال من دعوات ذلك الرجل الصالح الصادق المخلص[1] .

فذكر لنا أنه كان إذا جلس الشيخ أحمد الترمانيني للتدريس في الجامع الأموي علىٰ كرسي التدريس ، كان هذا المريد يجلس إلىٰ جانب الكرسي عند رجلي الشيخ ، قال : فذكر الشيخ دعاءً وارداً عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، والرجل الصالح يسمع ذلكَ ، لكن أشكل عليه كلمة لا يحفظها كما قال الشيخ ، لكنها في معناها ، فوقع في نفسه اضطراب .

قال الرجل الصالح : فالتفت الشيخ إليَّ وقال لي : يا فلان قُلْ كما تحفظ والمعنىٰ واحد ، وأجرك مكتوب ـ هذه حكاية حصلت معه .

والحكاية الثانية قال الرجل الصالح : كان رجل من عوامّ الناس أبيض اللون ، وتزوج امرأة بيضاء اللون ، فولدت له ولداً قاتماً يميل إلىٰ لون السواد ، فوقع الزوج في وَهْمٍ وَظَنٍّ فاسد حول زوجته ، وأن الولد ليس منه ، واضطرب اضطراباً نفسياً عظيماً ، فقال له بعض أصحابه : ما يَحِلّ مُشكلتك إلا أَنْ تذهب إلىٰ الشيخ أحمد الترمانيني ، فتسأله عن ذلك فيجيبك .

فقال : أين ألقىٰ الشيخ أحمد ؟ .

فقالوا له : دَرْسه في الجامع الأموي ، فبعد أنْ ينتهي مِنْ درسه ، تَمشي إلىٰ جانبه ، وتذكر له أمرك وإشكالك .

فذهب إلىٰ درس الشيخ أحمد ، وهو يدرس في الجامع الأموي ،

---

(١) وهذا من فضل الله تعالىٰ ، فإني منذ صغر سني ما زار والدي الكريم رجلاً صالحاً ، أَوْ ولياً إلا وأخذني معه ، وكان يدعو لي ، ويطلب منهم الدعاء لي ، والحمد لله رب العالمين .

وجلس إلىٰ جانب المستمعين ، فما لبث قليلاً وإذا بالشيخ أحمد الترمانيني يتوجَّه إلىٰ جهة الرجل ويقول : يا إخواني إنَّ بعض الناس يكون لَوْنه أبيض وامرأته بَيضاء ، فيأتي زوجته وَهي في حالة الحيض فيأتي الولد قاتماً يميل لونه إلىٰ السواد ، فيتَّهم زوجته بأن المولود ليس منه ، بل هو منه ، فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه ، لأنه أتىٰ زوجته في حالة الحيض ، وهذا حرام .

ثم رجع فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني إلىٰ موضوعه العلمي الذي بدأ به ، وَأتمَّ الدرس ، وقام الناس .

فقال بعض أصحاب الرجل الذي اتَّهم زوجته قالوا له : اذهب مع الشيخ واذكر له قصتك ، وموضوع إشكالك .

فقال الرجل : قد أجابني الشيخ في أثناء درسه جواباً شافياً كافياً .

فكان الشيخ أحمد له مكاشفات عجيبة عن قلوب الجالسين في درسه أو مجالسه ، كما كان له مكاشفات عن أمور غيبية كبيرة وكثيرة :

ومن ذلك كان خارجاً من الجامع الأموي بعد انتهاء الدرس في يوم من الأيام ، فإذا به وقف طويلاً عند الباب ، مستغرقاً في التوجُّه إلىٰ الله تعالىٰ ، والتضرع والدعاء والانكسار ؛ ثم جُلّيَ عنه .

فسألوه عن ذلك ، فأجابهم بأنَّه كشف له عن زلزال وقع قريباً ، وهو مُتوجِّهٌ نحو مدينة حلب وضواحيها ، فوقف وتوجَّه إلىٰ الله تعالىٰ ، وألحَّ في دعائه والتضرع حتىٰ حوَّله الله تعالىٰ إلىٰ بلاد الكفرة . اهـ .

وكان جدي السيد الحاج محمد رحمه الله تعالىٰ يتحدَّث عن الكرامات والمكاشفات التي شاهدها من فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ، ويذكر ذلك لوالدي الكريم ، ولأعمامي الكرام ،

وَيَذكر لهم ما شاهده مِن فضائل الشيخ أحمد الترمانيني ، وبركاته ، وسعة معلوماته ، وأنه كان واسع الاطلاع ومرجعاً في الفتوىٰ ، رحمه الله تعالىٰ ونفعنا به آمين ، وبجميع أولياء الله تعالىٰ أجمعين .

وقد ذكر العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالىٰ في كتابه (جامع كرامات الأولياء) ترجمة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ، وبَيّنَ سعة علمه واطلاعه ، وكراماته ومكاشفاته ، وقال : قد قرأ ـ الشيخ أحمد ـ العلوم في الجامع الأزهر وأدرك كبار المشايخ ، كالشيخ حسن القويسني ، والشيخ محمد الفضالي فأخذ عنهم ، مع شيخنا الشيخ محمد الدمنهوري ، وشيخنا الشيخ إبراهيم السقا ، وشيخ مشايخنا الشيخ إبراهيم الباجوري ، فهو من أقران هؤلاء الأئمة ، وأخذ عن بعضهم رضي الله عنهم اهـ .

قال : وقد حدثني عنه الثقات أنه كان مع وفرة وكثرة علومه ، وكثرة عمله ، صاحب كرامات وخوارق عادات ، فَمِنْ ذلك أنه كان يَذكر في درسه ما يوافق ضمائر الحاضرين ، ويَحلُّ مشكلاتهم التي تتعلق بهم في دنياهم وآخرتهم ، وأن الناس صاروا يقصدون درسه لذلك . اهـ .

وقد ذكر العلامة الكبير ، والمحدث والمؤرخ الشهير ، الشيخ راغب الطباخ رحمه الله تعالىٰ ذكر في تاريخه (إعلام النبلاء) ترجمة العلامة الكبير ، والعارف بالله تعالىٰ الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ، فأطال في ترجمته ، وبَيَّن فيها سعة علومه ومعارفه ، فارجع إليها ترىٰ الفضائل والكرامات والمناقب ، وذكر مؤلفاته في تفسير القرآن العظيم ، وفي شتىٰ العلوم الشرعية ، وعدَّ له ما يزيد علىٰ عشرين مؤلفاً ، كلها علىٰ المستوىٰ العالي والتدقيق والتحقيق العلمي .

وقال في ترجمته : ولا زال الناس يتحدثون عن مكاشفات الشيخ

الكبير التي بلغت مبلغ التواتر ، بحيث لم يَبْقَ مجال لإنكارها ، وسلَّم ذلك له معاصروه وملازموه ، قال : ولو جمعتُ ما كنت أسمعه منذ ثلاثين سنة إلىٰ الآن مِنْ كراماته ، لبلغتْ مجلداً كبيراً . اهـ .

وقد ذكر له جملة واسعة مِنْ كراماته ومكاشفاته رحمهم الله تعالىٰ .

ولقد كنت أسمع من سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالىٰ كثيراً من كرامات ومكاشفات الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ، نقلاً عن والده ـ أي : جدي الحاج محمد سراج الدين التقي الصالح رحمه الله تعالىٰ ـ فإنّه كان ملازماً كل الملازمة لدروس الشيخ أحمد ، ومجالسه الخاصة والعامة ، وكانت له منزلة كبيرة عند الشيخ أحمد رحمهم الله تعالىٰ أجمعين .

* * *

بَدْءُ
سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالىٰ
في طلب العلم

لما شَبَّ سيدي الوالد الكريم وجَّهه جَدي السيد الحاج محمد والده الكريم إلىٰ طلب العلم الشرعي ، حُباً في العلم ، وتحقيقاً لرغبة والدي الكريم في طلب العلم ، وحباً في العلامة الكبير والعارف الشهير ، الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالىٰ ، وَحباً في العلماء العاملين الصالحين عامة .

فأقبل والدي الكريم علىٰ طلب العلم إقبالاً صادقاً ، وتوجَّه إلىٰ ذلك توجهاً كلياً ، بدافع المحبة والصدق في النية ، والإخلاص لله تعالىٰ ، مع ملازمة العمل الصالح ، وتقوىٰ الله تعالىٰ في السِّرِّ والعلانية .

فانتسب إلىٰ المدارس الشرعية وقتئذٍ ، والتزم المجاورة فيها ، والنوم فيها ، وذلك لأن طلب العلم كان وقتئذٍ قائماً علىٰ نظام المجاورة في المدارس الشرعية ، وكانت مُسْتويات المدارس الشرعية وقتئذٍ علىٰ مراتب وأصناف ثلاثة :

الصنف الأول : فيه تعلم مبادئ العلوم الشرعية ، ودراستها علىٰ وجه مبسط ابتدائي ، وفيه دراسة المؤلفات العلمية الموجزة ـ وكان ذلك مقره في المدرسة القرناصية وأمثالها ـ وقد جاور والدي الكريم رحمه الله تعالىٰ في المدرسة القرناصية مُدَّة أكمل فيها مقرراتها بسرعة ونشاط ، وجدّ واجتهاد ، ثم انتقل إلىٰ الصنف الثاني .

الصنف الثاني : من المدارس الشرعية وقتئذٍ المقرر فيها تعلم العلوم الشرعية علىٰ مستوىٰ متوسط ، وفيها دراسة العلوم الشرعية علىٰ وجه أوسع وأطول من الصنف الذي قبله وأجمع ، والكتب العلمية المقررة فيها هي أوسع ، ومستواها أعلىٰ مما قبله ـ وكان ذلك في المدرسة الإسماعيلية وأمثالها ـ وقد جاور فيها سيدي الوالد الكريم ، وأجاد حتىٰ أنهىٰ مقرراتها علىٰ أكمل الوجوه ، ثم انتقل إلىٰ الصنف الثالث من المدارس الشرعية وقتئذٍ كما سأبيّن ذلك .

وقد أُسند إليه التدريس في المدارس الشرعية التي جاور فيها بعد وفاة مدرسيها ، فدرس فيها مُدة طويلة[1] ، ولما أسندت إليه وظيفة مدرس محافظة حلب ـ درجة أولىٰ ـ ثم أسند إليه الدرس في الجامع الأموي ، ثم أسند إليه التدريس في جامع الحموي كل يوم ما عدا يوم الثلاثاء ـ كما سأبين ذلك إن شاء الله تعالىٰ ـ لما أسندت إليه تلك الدروس : ترك التدريس في تلك المدارس .

وكان لسيدي والدي الكريم رحمه الله تعالىٰ دراسة واسعة لجميع العلوم العربية علىٰ كثرة أنواعها .

فكان يحفظ متن أوضح المسالك للعلامة ابن هشام ، في علم النحو والتصريف ، وقد درس شروحه وحواشيه .

كما أنه كان يحفظ متن التلخيص في علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، وقد قرأ شروحه وحواشيه .

---

(١) وقد كنت وأنا صغير السن ، أرىٰ في خزانة البيت عدة مجموعة من مفاتيح الأقفال ، فسألت والدتي رحمها الله تعالىٰ عن تلك المفاتيح ؟ فقالت : هذه مفاتيح غُرف التدريس في المدارس الشرعية التي كان أبوك شيخها يدرس فيها ، مَعَهُ مِفتاح ، ومع خادم المدرسة مفتاح آخر .

ولا يزال متن أوضح المسالك الذي كان حَفِظَهُ وعلَّق عليه وضبط بعض شواهده ؛ لا يزال هو عندي ، وقد قرأت فيه واطلعت عليه ، وقرأت في شرحه ، غير أني لم أحفظه ، وإنما حفظت ألفية النحو للإمام محمد بن مالك التي بدأها بقوله :

قال محمد هو ابن مالك أحْمَدُ ربي الله خير مالك
مُصَلِّياً على النبي المصطفىٰ وآله المستكملين الشَّرفا

إلىٰ ما هنالك .

وقد حفظتها وأنا في الصف الثاني في المدرسة الخسروية ، والحمد لله رب العالمين .

الصنف الثالث : من المدارس الشرعية التي جاور فيها سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ وقتئذٍ ، هي المدرسة الشعبانية ، التي كانت تُسمىٰ أَزْهر حلب ، فإنها كانت علىٰ مستوىٰ رفيع عالٍ في تعلم العلوم الشرعية ، ودراسة الكتب العلمية الواسعة ، وقراءة مطولات الكتب العلمية ، وكان يُدَرِّسُ فيها العلماء الفضلاء الأجلاء المشاهير .

فقد تفقَّه فيها سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ علىٰ العلامة الكبير ، والفقيه الشهير ، فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الزرقا ، صاحب العلوم الواسعة رحمه الله تعالىٰ ، وحضر عليه وتلقىٰ عنه كتاب (الدرّ المختار) وعليه حاشية (رد المحتار) .

كما تلقىٰ سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ مُطولات كتب علوم اللغة العربية : النحو ، وعلم البلاغة بأنواعه الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، تلقىٰ ذلك عن فضيلة العلامة الكبير ، الشيخ مُحمد بشير المعروف بالغُزِّي ، كما قرأ عليه مطولات علم المنطق .

فقد قرأ عليه كتاب الشمسية في علم المنطق مع شرحها ، ومِنَ المعلوم أن كتاب الشمسية في علم المنطق هو أوسع كتب المنطق وأصعبها .

كما تلقىٰ عنه سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ علم التوحيد علىٰ طريقة علماء الكلام ، كما أخذ عن كبار العلماء المختصين بعلم التوحيد وقتئذٍ .

وقد توسع سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ في مطالعة ودراسة مطولات كتب علم التوحيد ، والمشهور منها : كتاب (المواقف) للعلامة الكبير أبي البركات علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني رحمه الله تعالىٰ ، وكتاب (الطوالع) للعلامة الكبير ، والمفسر الشهير ، والفقيه الأصولي ، ناصر الدين ، عبد الله بن عمر البيضاوي رحمه الله تعالىٰ ، وكتاب (المقاصد) للعلامة الكبير ، والمحدث ، والأصولي ، السيد سعد الدين المعروف بالتفتازاني رحمه الله تعالىٰ .

فقد قرأ والدي الكريم تلك الكتب المطولة الواسعة ، وبحث فيها على وجه واسع ، وعلَّق عليها ، وهي محفوظة في مكتبته رحمه الله تعالى ، ونفعنا به ـ آمين .

ثم توجَّه والدي رحمه الله تعالى توجهاً تاماً إلى علم التفسير والحديث ، وتوسع في ذلك ، وجمع في مكتبته من كتب التفسير وكتب الحديث أنواعاً من المختصرات والمطولات[1] .

---

(١) كما سأبين ذلك بعد إن شاء الله تعالى ، وصار من كبار علماء التفسير والحديث ، مع الحفظ والإتقان .

عقيدة سيدي الوالد رحمه الله تعالى
في باب علم التوحيد

إنّ عقيدة والدي الكريم رحمه الله تعالى في باب التوحيد هي ما كان عليه جمهور السلف الصالح ، فإنهم صَدْرُ الأمة ، المشهود لهم بالخيرية ، كما جاء في الحديث عن سيد العالمين ، وخير البرية ، عليه أفضل الصلاة والسلام وأزكى التحية ، حيث قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » متفق عليه ، وجاء في رواية « ثم الذين يلونهم » الحديث .

وكان والدي الكريم رحمه الله تعالى يقول : إنَّ مذهب السلف الصالح هو أعلم وأحكم وأسلم ، قائم على الكتاب والسنة ، وجرى عليه خيار الأمة ، وكبار الأئمة ، وكان يُبيِّن ما هي عقيدة السلف الصالح فيقول : إنها إثبات الكمالات المطلقة الواردة في الكتاب والسنة ، على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى ، مع التنزيه عن التشبيه ، والتمثيل ، والتنظير ، والعيوب والنقص .

فهي إثبات ما ورد على ما ورد ، مع التنزيه ونفي التشبيه والمماثلة قطعاً ، فلا تشبيه ولا تمثيل ، ولا تجسيم ولا تكييف ، بل هو كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ كما سيتضح ذلك قريباً إنْ شاء الله تعالى .

وكان والدي الكريم رحمه الله تعالى يستدل على ذلك بوجوه من الأدلة الكثيرة أذكر طرفاً منها :

الأول: قول الله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

فقد نفىٰ سبحانه وتعالى عن نفسه المثل له ، والشبيه به ، وأكَّد ذلك بقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ ولم يقل : ليس مثله شيء ، فهذا فيه قوة التأكيد في نفي المثيل له ، والشبيه[1] به ، فلا مماثلة ، ولا مشابهة بينه سبحانه وتعالى وبين خلقه ، لا يُشْبههم ولا يُشْبهونه ؛ نفياً عاماً من جميع الوجوه .

فهو سبحانه وتعالى هو كما هو ، لا يُشْبه خلقه ، ولا الخلق يشبهونه ، فبعد ما نزَّه نفسه سبحانه وتعالى عن المثل والشبيه بقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فأثبت لنفسه سبحانه وتعالىٰ صفات الكمالات المطلقة ، كما يليق به سبحانه وتعالىٰ فقال : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ أي : والعليم والقدير ، والعزيز الحكيم ، إلى ما هنالك من صفات الكمالات المطلقة التي لا نهاية لها ، على وجه لا مِثْل له في ذلك ولا شبيه ، ولا نظير ولا عديل .

فقوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ فيه تنزيه عن المماثلة والشبه ، والحدوث ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فيه إثبات الكمالات المطلقة لله تعالى وحده ، على الوجه الذي يليق بكماله جل وعلا سبحانه وتعالى .

فالعقيدة الإيمانية في توحيد الله تعالى قائمة على أساس إثبات ما جاء في الكتاب والسنة ، من صفاته سبحانه وتعالى ، وأسمائه وأفعاله ، على وجه الكمال المطلق اللائق به سبحانه وتعالى ، مع التنزيه عن المماثلة والمشابهة مِنْ جميع الوجوه .

---

(١) فأراد سبحانه نفي التشبيه على آكد ما يكون من النفي ، فجمع بين حرف التشبيه واسم التشبيه ، حتى يكون النفي مؤكداً على أكمل وجه المبالغة ، كما هو معروف عند العرب اهـ انظر (الأسماء والصفات) .

الدليل الثاني : إن الله تعالى أخبر في القرآن الكريم عن الملائكة عليهم السلام ، أنهم دائماً في تسبيح لله تعالى ، وحمد له جل وعلا .

قال الله تعالى مخبراً عن حملة العرش العظيم ومن حوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ الآية .

وقال الله تعالى : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ الآية .

والتسبيح هو تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به من النقائص والعيوب ، والمماثلة والمشابهة ، والحدوث وما هنالك .

وأما الحمد فهو إثبات المحامد والكمالات له سبحانه وتعالى ، كما ٱتصف به ، وكما أثبت لنفسه من صفات الكمال التي لا نهاية لها ، وحده لا شريك له في ذلك كله .

وقال الله تعالى مخبراً عن جميع الملائكة عليهم السلام : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

جاء في الحديث الذي رواه البيهقي بأسانيد متعددة ، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال : سألت رسول لله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن تفسير : سبحان الله :

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء » أي : عيب وشبيه ، ومثيل ، وحدوث .

بل هو سبحانه وتعالى متصف بكل كمال مطلق لا نهاية له ، وحده لا شريك له في ذلك ، ولا شبيه ، ولا عديل ولا كفوء .

فالتسبيح له سبحانه وتعالى تنزيه له عما تنزه عنه سبحانه وتعالى ، والحمد هو إثبات المحامد والكمالات له سبحانه وتعالى ، التي أثبتها لنفسه تعالى على وجه لا حَدَّ له ولا انتهاء ، ولا إحصاء ولا استقصاء .

فالتسبيح والحمد له سبحانه متلازمان ، فقد يُذكران معاً في الآيات القرآنية ، وقد يُفرد أحدهما بالذكر فيدخل الآخر فيه ضمناً ولزوماً .

فإذا ذكرته سبحانه وتعالى بالحمد فقد أَثْبَتَّ له الكمالات والمحامد صريحاً ، ونَزَّهْته عن النقائص والمذامّ لزوماً .

ألا ترى أَنَّك إذا قلت : إنَّه سبحانه وتعالى عليم ؛ فقد نزهته عن الجهل ، وإذا قلت : إنّه على كل شيء قدير ؛ فقد نزَّهته عن العجز .

وإذا ذكرته بالتسبيح ؛ فقد نزهته عن النقائص والشِّبْه والنظير وما هنالك ، ودخل في ذلك ضمناً ولزوماً إثبات الكمالات له ، كما أثبت لنفسه سبحانه .

ألا ترى أَنَّك إذا قلت : هو سبحانه لا شريك له ولا شبيه له ؛ فقد أثبتَّ أنه واحد أحد ، وإذا قُلت : إنّه لا يُعجزه شيء ؛ فقد أثبتَّ أَنَّه قادر على كل شيء ، وهكذا دواليك .

فالعقيدة الإيمانية التي كان عليها السلف الصالح ، المشهود لهم بالخيرية ، كما جاء في الأحاديث الشريفة النبوية ، تلك العقيدة هي قائمة على أساس الحمد مع التسبيح ـ أي : الإثبات مع التنزيه ـ أعني : إثبات ما جاء في الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، مع التنزيه عن التمثيل والتشبيه ، والنظير ، فهو سبحانه لا يُشبه المخلوقات ، ولا المخلوقات يشبهونه ؛ من جميع الوجوه والحيثيات ، فلا مماثلة ولا تشبيه .

الدليل الثالث : قول الله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ .

فقد بَيَّن الله تعالى في هذه الآية أَنَّ جميع الأشياء تَعلم أَنَّ لها رَبَّاً خلقها وأوجدها ، وأنَّه سبحانه متصف بالكمالات التي لا نهاية لها ، ومنزه عن النقائص والعيوب والآفات ، وحده لا شريك له ، ولا شبيه ولا مثيل له ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ أي : ما من شيء مِن المخلوقات إلاّ يسبح بحمده ، وهذا كما قال جمهور العلماء المحققين : هذا عامٌّ في الحيوانات ، والنباتات ، والجمادات ، والدليل على ذلك الأحاديث الشريفة الآتية :

روى البخاري ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل) .

وروىٰ الإمام أحمد ، وأصحاب المسانيد ، عن أبي ذر رضي الله عنه : (أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أخذ في يده حَصَيات ، فسُمِع ـ أي : سمع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وأصحابه ـ لهنَّ تسبيح كحنين النحل وكذا في يد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم) .

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إنَّ نُوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة ، دعا ابنيه فقال لهما : إني قاصٌّ عليكما الوصية : آمركما باثنين ، وأنهاكما عن اثنين .

أنهاكما : عن الشرك بالله تعالى والكبر ، **وآمركما** : بـ لا إلَه إلا الله ، فإن السموات والأرض وما بينهما لو وضعت في كفة الميزان ، ووضعت لا إلَه إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح ، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة ، فوضعت لا إلَه إلا الله عليهما لقصمتهما ، أو لفصمتهما ، **وآمركما** بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء ، وبها

يُرزق كل شيء » .

وروى النسائي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : نهى رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن قتل الضفدع وقال : « نقيقها تسبيح » .

قول الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي : لأن لغتها بخلاف لغاتكم ، إلاّ مَنْ علمه الله تعالى ذلك ، وأطلعه على ذلك ، فهو يسمع ويفقه .

فقد أطلع الله تعالى حبيبه الأكرم ، ورسوله المعظم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم على ذلك كله ، فهو يفهم ذلك كما قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في نقيق الضفدع إنه تسبيح ، وكما كَشَفَ الله تعالى للصحابة وَفَهَّمَهُم ببركة رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وأنواره وأسراره تسبيحَ الحصيات ؛ كما تقدم في الحديث ، وتسبيح الطعام ، ونحو ذلك .

الدليل الرابع : قال الله تعالى : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٣ ﴾ .

فوصف نفسه جل وعلا في هذه الآية بأنه ﴿ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ .

فاسم العزيز يدل على النزاهة ، والترفع عن الشبيه والمثيل والنظير ، وما هنالك من سمات العيوب والنقص .

واسم الحميد يدل على اتصافه سبحانه وتعالى بصفات الكمال والمحاسن ، والجمال والجلال ، على الوجه الذي لا نهاية له ، فإنه هو الله ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ ﴾ الحميد الذي يُحمد على جميع أسمائه وصفاته وأفعاله ، فموقع اسم الجلالة من الإعراب

النحوي ، بعد قوله تعالى : ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ موقعه الإعرابي النحوي هو : بدل مطابق[1] .

الدليل الخامس : قال الله تعالى : ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝٢ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٣ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٤ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٥﴾ .

وفي هذا تعليم من الله تعالى لعباده أن يقرؤوا في إثبات الكمالات لله تعالى ، التي اتصف بها على وجه لا نهاية ، يقرؤون : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ .

وأن يقرؤوا في تنزيهه عما لا يليق به ، وفي نفي الشبيه والمثيل له ، ونفي الكفؤ والنظير له سبحانه ، يقرؤون : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ صدق الله العظيم ، ونحن على ذلك من الشاهدين .

وعلى هذا جرى السلف الصالح ، ومنهم الإمام مالك وأمثاله رضي الله عنهم .

روىٰ الإمام البيهقي في (الأسماء والصفات) بسنده ، عن عبد الله بن وهب قال : كنا عند مالك بن أنس ، فدخل رجل فقال : يا أبا عبد الله : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ ؟ .

قال : فأطرق مالك ، وأخذته الرمضاء ـ أي : العرق في وجهه ـ ثم رفع رأسه فقال : الرحمن علىٰ العرش استوىٰ كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف ؟ وكيف عنه مرفوع ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة ، أخرجوه .

---

(١) وهذا تعبير العلامة الكبير محمد بن مالك صاحب الشافية ثم الكافية رحمه الله تعالى ، فإنه جرىٰ على ذلك ، بدلاً عن المشهور بين النحويين أنه : بدل الكل من الكل .

وروىٰ الإمام البيهقي بإسناده أيضاً ، عن يحيىٰ بن يحيىٰ قال : كنا عند مالك بن أنس ، فجاء رجل فقال : يا أبا عبد الله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ كيف استوىٰ ؟ .

قال : فأطرق مالك رأسه حتىٰ علاه الرمضاء ، ثم قال : الاستواء غير مجهول ـ أي : الاستواء معلوم معناه العلو[1] ـ والكيف غير معقول ـ أي : لا تدركه وتحيط به العقول ، فهو مجهول ـ والإيمان به واجب ـ يعني : أنّ الإيمان بأن الرحمن استوىٰ علىٰ العرش : واجب ـ والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعاً ـ فأمر به أنْ يُخرج اهـ .

فقول الإمام مالك : الاستواء معلوم غير مجهول ، في هذا إثبات ما ورد علىٰ وجه الكمال اللائق به سبحانه ، **وقوله : والكيف غير معقول ، وقوله أيضاً : ولا يقال كيف ؟ وكيف عنه مرفوع** : وفي هذا تنزيه الله تعالىٰ عن المشابهة والمماثلة والتجسيم ، فإنّه لا مشابهة بين الخالق والمخلوقات ولا مماثلة ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله سبحانه وتعالىٰ ، فهو جلَّ وعلا كما وصف نفسه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ صدق الله العظيم وبلَّغ رسوله الكريم صلىٰ الله عليه وآله وسلم ، ونحن علىٰ ذلك من الشاهدين .

دراسته لعلم التفسير

توجَّه سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى إلى علم تفسير القرآن الكريم ، فبدأ بقراءة كتب التفسير المتوسطة ، كتفسير العلامة النسفي ،

---

(١) أي : معناه في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم ـ العلو ـ وهو كما يليق به ليس كعلو المخلوقات ولا الأجسام ، وليس فيه تَحَيُّز ولا مشابهة .

ثم تفسير العلامة البيضاوي وتفسير العلامة الخطيب ، وغير ذلك من كتب التفسير ، وعلق عليها بعض التعليقات .

ثم اشتغل في مطالعة مطولات كتب التفسير ، مثل : تفسير العلامة الرازي ، وتفسير روح المعاني ، وتفسير العلامة القرطبي رحمه الله تعالى ، وتفسير روح البيان ، وتفسير العلامة ابن جرير الطبري ، رحمهم الله تعالى أجمعين .

وكان سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ يقول : كل تفسير من هذه التفاسير وغيرها له خصوصياته وأبحاثه ، فلا يُغني واحدها عن الآخر في كثير من الأبحاث والمسائل .

وقد جَمعتْ مكتبة والدي الكريم أنواعاً من التفاسير التي ذكرتها وغيرها ، التي أصبح كثير منها نادر الوجود .

وكان لسيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى اطلاع واسع حول كلام العارفين ، ومفاهيمهم من الآيات القرآنية ، وإشاراتها العرفانية ، وذلك بسبب اطلاعه الواسع على كلام القوم ، وأئمة العارفين ، وكتبهم ، ورسائلهم المختصرة والمطولة ، كما سيتضح ذلك بعدُ إن شاء الله تعالى .

دراسته علم الحديث الشريف
رِوَاية وَدِرَاية

كان لوالدي الكريم رحمه الله تعالى اطلاع واسع على كتب الحديث الشريف بأنواعها : الجوامع ، والسنن ، والمسانيد ، والمعاجم ، وما هنالك .

وله اهتمام خاص في الأصول الستة وشروحها ، وقد درس علوم المصطلح والقواعد الحديثية ، وله في ذلك خلاصات موجزة جامعة .

وكان له اطلاع واسع ، واهتمام كبير في قراءة شروح صحيح البخاري بأنواعها :

شرح العلامة الحافظ القسطلاني رحمه الله تعالى ، وله عليه تعليقات .

وشرح العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى .

وشرح (عمدة القاري) للعلامة الحافظ العيني رحمه الله تعالى .

وشرح العلامة الحافظ الكرماني رحمه الله تعالى .

وكان يقول : إنّ لكل واحد من هذه الشروح فوائده ، وخصائصه العلمية .

شيوخه في الحديث

مِنْ مشاهير العلماء المحدثين الذين قرأ عليهم الحديث الشريف وأجازوه ، محدث مدينة حلب : العلامة الكبير ، والمحدث الشهير الشيخ مُحَمد كامل بن الشيخ أحمد الحنبلي ، المشهور بالموقِّت الحلبي رحمه الله تعالى ، وقد أجاز والدي الكريم رحمهما الله تعالى ونصها عندي .

كما قرأ الحديث الشريف على المحدث العلامة الشيخ بكري بن أحمد الشهير بالزَّبَري ، وقد أجاز لوالدي الكريم رحمهما الله تعالى .

وقد أجاز لسيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى الإمام المحدث المسند ، الحسيب النسيب ، فضيلة العلامة الكبير ، والعارف الشهير ، الشيخ بدر الدين بن محمد بن يوسف الحسني الدمشقي .

وكان ذلك لما زار مَدينة حلب ، وكان معه كبار علماء دمشق ، أمثال العلامة الكبير ، والعارف الشهير الشيخ : علي الدقر رحمهم الله تعالى .

وقد أضافهم سيدي الوالد الكريم ، وأنزلهم في بناية كبيرة ، وسط حديقة بهجة عامرة لأحد أحباب والدي الكريم رحمهم الله تعالى .

وقد جرت بين والدي الكريم وفضيلة الشيخ الإمام بدر الدين ، جرت بينهما الأحاديث الودِّيَّة ، التي تُعَبِّرُ عن صدق المحبة بينهما ، وَوَحدة المشرب الذي عليه أئمة القوم ، ومشايخ العارفين رضي الله عنهم ، ونفعنا الله تعالى بهم أجمعين .

كما جرى بين والدي الكريم وفضيلة الشيخ المحدث الشهير بدر الدين الحسني جرى بينهما ذكر القضايا العرفانية ، والأبحاث العلمية في اجتماعات متعددة ، مِلؤُها الصِّدْق في المحبة والإخلاص لله تعالى ، والخشية من الله تعالى ، وتستغرق وقتاً طويلاً واسعاً ، وتنشد فيها المدائح النبوية ، والصلوات والتسليمات على سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، سيد العالمين ، وخير البرية .

وكانت الاجتماعات تضم عدداً كبيراً من علماء حلب ، وصالحيها ، ووجهائها . والحمد لله رب العالمين .

وقد عظمت المحبة بين والدي الكريم وبين فضيلة المحدث بدر الدين ، وقويت الصحبة والأخوة الإيمانية بينهما ، فكان سيدي الوالد الكريم يمدح فضيلة الشيخ بدر الدين ويُثني عليه بسعة علمه ، وبصلاحه ، وبورعه وزهده ، وبخشيته من الله تعالى ، وكان والدي الكريم رحمه الله تعالى يقول : من أراد أن يرى أحداً من علماء السلف الصالح فلينظر إلى الشيخ بدر الدين الحسني .

وكان الشيخ المحدث بدر الدين الحسني يُثني على والدي الكريم رحمهما الله تعالى ، ويمدحه بصلاحه ، وسعة علومه ، وقوة أدلته في تحقيق الحق ، ويرسل التحيات والتسليمات ويقول للقادمين إلى مدينة حلب : سَلِّموا على سراج حلب ، ويدعو لوالدي الكريم بنفع العباد والبلاد .

وكان والدي يرسل التحيات والتسليمات إلى فضيلة الشيخ بدر الدين ويقول : سَلِّمُوا لنا على بَدْر الشام ، مع طلب الدعاء .

وقد كثرت المراسلات بين سيدي الوالد الكريم وبين فضيلة العلامة الشيخ بدر الدين ، وَعُرف ذلك بين الخاص والعام من إخوانه وإخوان والدي رحمهما الله تعالى ، ونفعنا الله تعالى بهما وبجميع مشايخنا ، وبجميع العلماء العاملين المخلصين ، وجميع أولياء الله تعالى الصالحين ، في الدنيا والآخرة ـ آمين .

أولئك أحبابي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا أُخَيَّ المجامع

ومن كبار مشاهير المحدثين الذين أجازوا والدي الكريم رحمه الله تعالى ، فضيلة الإمام الكبير ، والعلامة الشهير ، صاحب التصانيف الحديثية الكبرى ، وصاحب التصانيف الواسعة في سائر العلوم النافعة ، السيد الشيخ محمد عبد الحيّ ابن شَيْخِهِ والده الإمام العارف الكبير أبي المكارم ، فضيلة الشيخ عبد الكبير ابن شيخه الإمام القطب محمد بن عبد الواحد الحسيني الحسني الإدريسي الكتاني ، نفعنا الله تعالى بهم أجمعين .

وإن نصوص هذه الإجازات كلها لسيدي والدي الكريم رحمه الله تعالى هي محفوظة عندي ، والحمد لله رب العالمين .

تدريسه
ودروسه التي أسندت إليه

لقد أسند إلى والدي الكريم رحمه الله تعالى التدريس في المدارس التي جاور فيها بعد وفاة مدرسيها ، وبقي على ذلك مدة طويلة .

ثم أسند إليه التدريس في الجامع الأموي الكبير ، وأصل هذا الدرس كان يقوم به فضيلة الشيخ أحمد الترمانيني رحمه الله تعالى ونفعنا به ، ثم أسند إلى سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى درس المحافظة ـ درجة أولى ـ فترك التدريس في تلك المدارس وَأُسْنِدت لغيره .

ثم أسند إلى سيدي الوالد رحمه الله تعالى التدريس في جامع الحموي كل يوم ما عدا يوم الثلاثاء .

وكان قبل ذلك قد وُظِّف إماماً وخطيباً في جامع سليمان الأيوبي رحمه الله تعالى ، وبقي على ذلك إلى أن كبرت سنه وضعف ، فتنازل عن الإمامة والخطبة ، وأسندهما إليَّ بعد أن انتهيت من الدراسة في المدرسة الخسروية الشرعية ، والحمد لله رب العالمين .

وقد كنت أصلي مع سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى في جامع سليمان الأيوبي حين كان يصلي إماماً فيه .

وأنا أذهب معه إلى الجامع ليصلي إماماً فيه صلاة الفجر ، وكنت صغير السن ، فيدخل الجامع ويصلي سنة الصبح ، ثم يجلس لقراءة ورد الصبح مع جماعة الجامع ، وأنا أكون معه ، حتى إني لأذكر الآن نَغْمَةَ أصواتهم في الورد ، وحسن ترتيبهم ، وهم يجهرون بالورد ، ويرفعون

أصواتهم . والحمد لله رب العالمين .

ومن جملة صيغ الورد صيغة :

سبحان الله وبحمده ، سبحانه الله العظيم ، أستغفر الله ـ مائة مَرّة .

وقد ورد فيها حديث نبوي ثابت ، وإنّ من خصائص هذه الصيغة مائة مرة ما بَيْنَ سُنة الفجر وفرضه : يفتح الله تعالى أبواب الرزق والتيسير ، كما بينت ذلك في أوائل كتابي حول تفسير سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فارجع إليه فإن فيه عدة فوائد ومنافع للمؤمنين في دينهم ودنياهم .

أبحاث
سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى
في دروسه وبرامجه

كان سيدي الوالد رحمه الله تعالى يقرأ في الجامع الحموي صباحاً بعد طلوع الشمس بنصف ساعة في كل يوم من أيام الأسبوع ما عدا يوم الثلاثاء .

فكان يقرأ يوم السبت مِن (صحيح) البخاري ما يقرب من خمس وعشرين صحيفة ، على الترتيب من أوله ، يقرأ ذلك على أنه مَجلس رواية الحديث الشريف ، دون شرح ، وكان يفتتح ذلك بقوله :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين :

أما بعد :

فإنّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخَير الهدي هَدْي محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة

بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، فهنا يقف قليلاً ثم يقول : بالسند المتصل ـ يعني : بذلك سنده عن شيوخه الذين أجازوه عن شيوخهم ـ إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبة ، الجُعفي البخاري ، قال : فيصل السند منه إلى النبي ﷺ ثم يقرأ الحديث ـ أي : من صحيح البخاري حديث ما انتهى إليه في مجلس الحديث الذي تقدمه قبل ـ ويقرأ الأحاديث من صحيح البخاري رحمهما الله تعالى بهمة وعزم ونشاط ، وتتابع دون فتور .

وكان يُنبه إلى اختلاف قد يقع أحياناً في بعض النسخ ، فإنَّ بعض الذين يحضرون من أهل العلم وأهل الصلاح والفهم ؛ كانوا يصطحبون معهم (صحيح) البخاري ، فينبههم إلى الاختلاف في بعض النسخ .

وأما في يوم الأحد ، فكان يقرأ في الجامع الحموي صباحاً كما قلنا تفسير القرآن الكريم ، ويصحب معه الجزء الأول من تفسير العلامة الخطيب رحمه الله تعالى ، فيقرأ الجملة من تفسير العلامة الخطيب ويشرحها ، ويعلق عليها ، ويفرع عنها مسائل علمية ، وعرفانية ، وجميع ذلك مع الأدلة من الكتاب والسنة ، على وجه مفصل واضح .

وأما في يوم الأربعاء فيقرأ في الجامع الحموي صباحاً كما قلنا من كتاب (مشكاة المصابيح) للإمام الكبير والعلامة الشهير الخطيب التبريزي رحمه الله تعالى ، ويشرح الأحاديث شرحاً مطوَّلاً مفصلاً ، مع بيان قضايا التوحيد التي تمر معه في شرحه للحديث ، على مذهب علماء التوحيد من المتكلمين ، وعلى مذهب علماء التوحيد عند العارفين ، وإذا اختلفت أقوال المتكلمين مع أقوال العارفين يُرجح قول العارفين ، مع الأدلة الساطعة ، والحجج البينة اللامعة ، كما كان يُرجح مذهب السلف على مذهب الخلف إذا اختلفا في قضايا التوحيد .

وأما يوم الخميس فيقرأ في الجامع الحموي صباحاً كما قلت ـ يقرأ من (شرح الطريقة المحمدية) للعلامة الكبير ، والعارف الشهير ، فضيلة الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه ، ونفعنا الله تعالى به وبجميع أولياء الله تعالى أجمعين ، ويبين ما فيه من الكنوز والجواهر العرفانية .

وأما يوم الجمعة فكان يقرأ بعد صلاة الجمعة في الجامع الحموي الجزء الأول من (الدرّ المُختار) وعليه حاشية (ردّ المحتار) ـ في علم الفقه الحنفي ـ يقرأ ذلك ويتوسع في بيان الأحكام الفقهية ، فإن من شرط الواقف قراءة درس فقه في الأسبوع ، فكان يقرأه عقب صلاة الجمعة ، ثم يعود إلى البيت ، فيستريح مدة ثم إذا دخل وقت صلاة العصر ذهب إلى جامع سليمان ، فصلى فيه صلاة العصر إماماً ، ثم يذهب فوراً إلى جامع بانقوسا ، ليقرأ فيه ذلك الدرس الحافل الجامع كما سأبينه إن شاء الله تعالى .

ثم إنّ الدرس في جامع الحموي أُلغي بعد وفاة والدي الكريم رحمه الله تعالى ، ولم يسندوه إلى أحد ، وألغوا راتبه المرتب الشهري له ، فكنت وأنا العبد الفقير لربه تعالى مُواصلاً للتدريس فيه ، على المنهاج الذي جرى عليه والدي الكريم ، في التدريس فيه صباح يوم السبت ويوم الأحد ، ويوم الأربعاء ويوم الخميس ، مستمراً على ذلك ، أقوم بالتدريس فيه بلا راتب ولا مقابل ، مبتغياً بذلك رضا الله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وخدمةً لعلم التفسير وعلم الحديث ، والحمد لله رب العالمين ، وسيراً على طريقة سيدي والدي الكريم ، وقد كثر القاصدون لسماع الدرس في جامع الحموي ، حتى أدَّىٰ ذلك إلى ازدحام الناس في الجامع وساحته .

وقد كان الناس يعانون شدة البرد في الشتاء إذا جلسوا في ساحة الجامع ، بسبب ازدحام الناس داخل الجامع ، فسعيت في بناء سُدَّة عالية واسعة في داخل الجامع ، قام بذلك بعض أهل الخير فجزاهم الله تعالى الخير . والحمد لله رب العالمين .

حول دروسه التي كان رحمه الله تعالى يلقيها في الجامع الأموي وفي جامع بانقوسا

أولاً : أوقاتها :

كان في يوم الاثنين يلقي الدرس عقب صلاة الظهر ، فكان يصلي الظهر إماماً في جامع سليمان ، ثم يمشي إلى الجامع الأموي ، فيجلس على ركبتيه ويلقي الدرس ، وقد اجتمعت الناس ، وأخذ كل واحد مكانه ، وكان يصحبه في الذهاب إلى الجامع الأموي وكذلك في الذهاب إلى جامع بانقوسا يصحبه الرجل الصالح ، والمحب الصادق ، الذي لازم سيدي الوالد الكريم لخدمته وصحبته ، وحضور دروسه كلها ، ومجالسه ، ورواحه ومجيئه ، الحاج محمود الحاج كريم رحمه الله تعالى ، وجزاه الله تعالى خيراً .

وكان يحمل نعل والدي الكريم إذا دخل الجامع ، ويضعه له إذا أراد الخروج من الجامع ، وكان قد التزم خدمة سيدي الوالد ومرافقته حيثما توجَّه رحمهما الله تعالى ، وكان هو الذي يُسمِّع الناس عند ختم الدرس ، ويتولى ترتيب ما يختم به الدرس من صيغة الصلاة الإبراهيمية ، والتهليل بعدها ، وقراءة الفواتح كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

وأما دروسه في جامع بانقوسا ، فكانت في يوم الجمعة ، عقب صلاة العصر ، فكان سيدي الوالد رحمه الله يُصلي يوم الجمعة العصر إماماً في جامع سليمان الأيوبي ، ثم يتوجَّه إلى جامع بانقوسا ليلقى فيه الدرس ، وكان درس يوم الجمعة في بانقوسا يَضم عدداً كبيراً من المستمعين ، يملأ الجامع ، وفيه من جميع الطبقات : العلماء ، والصلحاء ، والعوام ، فهو درس عامٌّ ، وليس بدرس عَوامٍّ ؛ كما قال ذلك رحمه الله تعالى مراراً ، فكان يأتي بأبحاث توحيدية ، وإيمانية ، مع الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية ، على وجه واسع واضح ، وكل واحد من المستمعين يمتلىء قلبه إيماناً ومحبةً لله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

ثانياً : كان سيدي الوالد رحمه الله تعالى يفتتح دروسه في الجامع الأموي وجامع بانقوسا ـ يفتتح ذلك بالصيغة التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فإنَّ أصدق[1] الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هَدي محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم يقول : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَة ، الجعفي البخاري قال ـ أي البخاري ـ : حدثنا عُبيد الله بن موسى ، قال أخبرنا حنظلة بن أبي

---

(١) هذا الحديث كثيراً ما كان صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يفتتح خطبه به ، وكان والدي الكريم يفتتح به دروسه إتباعاً له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، واستفتاحاً وتبركاً .

سفيان ، عن عكرمة بن خالد ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم : « بُني الإسلام على خمس : شهادة أَنْ لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت » ثم يدخل في بحثه العلمي الذي يُريد أن يُلقيه ، مع ربطه في البحث الذي قبله ، على وجه متسلسل ، ومترابط ومتناسب .

ثالثاً : خاتمة دروسه جميعها :

كان إذا ختم الدرس وانتهى من البحث يقول : وسيأتي تمام هذا إن شاء الله تعالى .

فإذا قال ذلك ، بدأ الناس المستمعون بالصلاة على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم جهراً ، بصيغة الصلاة الإبراهيمية ثلاث مرات ، ويقولون في آخر كل صلاة : عَدَد خلقك ، وَرِضاء نفسك ، وزنة عرشك ، ومداد كلماتك، كلما ذكرك وذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون.

ثم يقولون عشر مرات : لا إلٰه إلا الله ـ جهراً .

ثم يُسمِّع الحاج محمود رحمه الله تعالى الفواتح ، ثم يدعو سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى ، وبذلك يكون الختام وكان دعاؤه عقب الدروس وفي خطبة الجمعة كما يلي :

اللهم صل علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم .

اللهم أيِّدِ الإسلام والمسلمين ، وانصر وأعلِ يا مَولانا كلمة الحق والدين .

اللهم ارفع الكَرْبَ والشدائد عن أمة سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم .

اللهم ارحم أمة سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

اللهم أصلِح أمة سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

اللهم احفظ أمة سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

ثم يقول سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى عند انتهائه من الدعاء وراء دروسه : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ والمستمعون يقولون ذلك مع سيدي الوالد رحمه الله تعالى جهراً وجماعة .

والختم بذلك مستحب ، لما ورد في ذلك من طرق متعددة ، عنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

روى ابن أبي حاتم بإسناده ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « مَنْ سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفىٰ مِنَ الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه ، حين يريد أن يقوم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ » .

وروى الطبراني ، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال : « من قال دُبُرَ كل صلاة : ـ أي : وراء كل صلاة ـ ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ ثلاث مرات ؛ فقد اكتال بالجريب ـ أي : المكيال ـ الأوفى من الأجر » .

رابعاً : أبحاثه العلمية والعرفانية ، التي يتناولها في درسه في الجامع الأموي ، وجامع بانقوسا :

كانت دروسه رحمه الله تعالى كلها محاضرات علمية وعرفانية ، متسلسلة محكمة ، تدور حول : لا إلَه إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فكان رحمه الله تعالى يأتي بالآيات القرآنية التي فيها الحجج والبينات ، الدالة على أنه لا إلَه إلا الله محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ويفسر تلك الآيات الكريمة ، ويتوسع في شرحها ؛ شرحاً علمياً عرفانيا ، بحيث لا يُبْقي شَكّاً لشاكّ ، ولا ريبة لمرتاب .

وذلك لأن القرآن الكريم جاء بالبراهين القاطعة، والبينات الساطعة ، والحجج البالغة ، والأدلة القطعية التي هي للباطل دامغة ، ويستدل على ذلك بما يأتي من الآيات القرآنية ونحوها من بقية الآيات الكريمة .

أولاً : قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ .

والمعنى : أن الله تعالى ذكر في القرآن وجوهاً متعددة من الأدلة ، وأنواعاً من البينات الساطعة ، والحجج القاطعة ، الدالة على حَقِّيَّة ما جاء به هذا القرآن ، وصدق رسالة سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، والهدىٰ الذي جاء به ، ولكن مع ذلك كله ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ وإعراضاً وجحوداً ، وذلك من عنادهم وكبر نفوسهم ، واتباع أهوائهم الفاسدة ، كما قال تعالى : ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ أي : بعدما ثبت لهم بالأدلة القاطعة ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهم يجادلون في الحق

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ .

والمعنى : أنه سبحانه وتعالى بَيّن في هذا القرآن للناس أنواعاً من البينات القاطعة ، والحجج والبراهين الساطعة ، ووضح لهم الحق بأساليب من البيان والإيضاح ، على أبلغ وجوه الحسنِ والكمال والجمال ، حتى تبين لهم أن هذا القرآن العظيم وما جاء به ؛ هو الحق النازل من عند الله تعالى ، على عبده ورسوله سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وقد عرفوا أنه الحق ، ولكنهم لم يعترفوا ، ولم يقروا بذلك ، بل كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أي : جحوداً وإنكاراً للحق بعدما تبين لهم ، عناداً وكِبراً ، واتباعاً لأهوائهم الباطلة .

ثانياً : قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالى رسوله الأكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، أن يجاهد الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً ، وذلك بأن يُقيم عليهم الحجج القرآنية ، ويأتيهم ببيناته وبراهينه القاطعة ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ في هذا إعلان وبيان أنَّ سيف حجج القرآن وبيناته قاطع ، يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق .

وهل يتصوَّر العاقل أَنّ الله تعالى يأمر رسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أَنْ يجاهد الكفار بحجج القرآن وبيناته ودلائله ، أيأمره بذلك ويكون سيف حجج القرآن الكريم غير قاطع ؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن حجج القرآن الكريم قطعية لا تُرَد ، وهي معقولة تقحم العقلاء والحكماء ، فإن حُجج القرآن محكمة بالغة قطعية دامغة ، لمن تذكر وعقل وتفكر ، فإنَّ أدلة القرآن الكريم وحججه معقولة محكمة ، ولذلك ينبه الله تعالى ويدعو عباده إلى التعقل والتذكر فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

فإذا هم عقلوا وفكَّروا في ذلك عَرفوا يقيناً أنّ الله تعالى هو حق ، وكتابه وما جاء فيه هو حق ، ورسوله حق صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وأن الله تعالى هو متصف بالكمالات المطلقة ، والعلم الذي لا يتناهى ، والقدرة التي لا يعجزها شيء ، والحكمة البالغة التي لا انتهاء لها ، وما هنالك من الأسماء والصفات الإلٰهية ، والكمالات الربانية ، فلولا أن آياته وبيناته معقول محكمة ، ما قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فهو سبحانه يتحدَّى العقلاء والحكماء .

ومن هنا تعلم أَنّ العقل السليم من تلاعب الأهواء والآراء الفاسدة ، يستسلم ويقرُّ ، ويعترف مع الإجلال والإكبار بأن هذا القرآن وما جاء به هو معقول ومحكم ، ومبرم ، لا ريب فيه ولا شك ، ولا خلل ولا التباس ، وإذا تعارض عقل بعض الناس مع القرآن الكريم دَلَّ ذلك على نقصان العقل أو فساده ، بسبب سيطرة الأهواء عليه ، والآراء الضالة الفاسدة .

ثالثاً : قال الله تعالى : ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ .

فَبَيَّن الله تعالى أنه أنزل الكتاب قرآناً عربياً ، أي : بَيناً فصيحاً بليغاً ،

يُعرب عن معانيه إعراباً جليّاً واضحاً ، معجزاً عن أَنْ يؤتىٰ بمثله ، وقد تحدَّى الفصحاء والبلغاء ، وجميع الإنس والجن ، وحكم بعجزهم عن ذلك .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : لأجل أَنْ تعقلوا ما جاء به هذا القرآن الكريم ، وتتذكروا وتتدبروا آياته ، وبذلك تعلمون علم اليقين أَنّ هذا القرآن كلام الله تعالى ، وأن محمداً رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم .

وقال الله تعالى : ﴿ حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي : الكتاب الجامع الذي فيه بيان كل شيء ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ الآية .

وقال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

الجعل في القرآن الكريم يأتي على معانٍ متعددة :

الأول : الجعل التكويني الإيجادي : قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي : خَلَقْنا وأوجدنا ﴿ مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ الآية الكريمة .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ الآية الكريمة .

الثاني : الجعل التشريعي : قال سبحانه وتعالى : ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ أي : ما شرع الله تعالى ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ .

الثالث : الجعل التصييري : ومنه قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أي : صيَّرناه قرآناً عربياً ، فالجعل هنا تصييري ، وهو المتعدّي لمفعولين ، لا بمعنى الخلق والتكوين ؛ فإنه يتعدى لمفعول واحد كما هو معلوم في اللغة ، تقول العرب : جعلت الطين إبريقاً ، أي : صيَّرتُه ، فإن كلام الله تعالى غير مخلوق ، إذ لو كان كلام الله تعالى مخلوقاً لكان خلقه وإيجاده بقوله تعالى : ﴿كُن﴾ وهي كلمة من كلمات الله تعالى ، وهذه كلمة ﴿كُن﴾ أيضاً يلزم أن تكون مخلوقة من كلمة كن قبلها ، وكلمة كن موقوف وجودها على كلمة كن مثلها ، وهكذا يؤدِّي ذلك إلى التسلسل الباطل بإجماع العقلاء .

وقول الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ يدل على فضل اللغة العربية على سائر اللغات ، ومن المقرر أن اللغة العربية هي أفصح اللغات بياناً ، وأوسع اللغات وأدلُّها على المعاني دلالة واضحة ، ويدل على فضل هذه اللغة العربية نزول القرآن بها ، قال تعالى : ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ ، وجاء في الحديث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « أحبُّوا العرب لثلاث : لأني عربي ، والقرآن عربي ، وكلام أهل الجنة عربي »[1] .

قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ .

---

(١) عزاه الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في (الجامع الصغير) إلى : الطبراني ، والحاكم ، والبيهقي رامزاً لصحته .

في هذا يبين الله تعالى لعباده فضل هذا القرآن الكريم ، وعظم شرفه ، ورفعة قدره ومكانته في الملأ الأعلى ، لأجل أن يعظمه أهل الأرض ، ويجلُّوه ، ويتمسكوا بما جاء به ، على الوجه الذي بينه لهم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، كما قال سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، وليحرصوا كل الحرص على اتباع ما فيه من الإرشادات والتوجيهات ، والهدى إلى ما فيه سعادتهم وصلاحهم وفلاحهم في الدنيا وفي الآخرة ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي : هذا الكتاب المبين ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي : مكتوب في ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو الكتاب الأول الجامع ، الذي كَتَب الله فيه كل شيء ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم ، والترمذي ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « كتب الله تعالى مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء »[1] ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ أي : عنده سبحانه وتعالى فوق العرش ، كما يدل على ذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لما قضى الله الخلق » وعند مسلم : « خلق الله تعالى الخلق ، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إنَّ رحمتي تغلب غضبي » .

وعند البخاري : « غلبت غضبي » كما في (جامع الأصول) ثم قال : وللبخاري أيضاً : « إنّ الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه : إنّ رحمتي سبقت غضبي » .

---

(١) كذا في (تيسير الوصول) .

قال : وللبخاري في رواية أخرى قال : « لما خلق الله تعالى الخلق ، كتب في كتاب كتبه على نفسه ، فهو موضوع عنده على العرش : إنّ رحمتي تغلب غضبي » .

قال : وفي رواية أخرى : « إنَّ الله تعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق : إنّ رحمتي سبقت غضبي ، فهو مكتوب عنده فوق العرش » .

قال : ولمسلم أيضاً ، أنَّ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « قال الله عز وجلّ : سبقت رحمتي غضبي » .

قال في (جامع الأصول) : ولمسلم أيضاً : « لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه ، فهو موضوع عنده : إنَّ رحمتي تغلب غضبي » .

قال : وأخرجه الترمذي قال : « إنّ الله تعالى حين خلق الخلق كتب بيده على نفسه : إنّ رحمتي تغلب غضبي » سبحانه وتعالى .

رابعاً : إنّ الله تعالى ينبه عباده وَيَحثُّهم على التذكر فيما جاء به القرآن الكريم ، والتدبر في آياته ، والتفكر والتعقل والتبصُّر :

قالَ الله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً

لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ .

فهذه الآيات الكريمة المتقدمة ، وغيرها من الآيات القرآنية ، كلها تدل دلالة قطعية على أنَّ حجج القرآن الكريمة وبيناته كلها قاطعة ، محكمة ، ساطعة ، تجعل العقول الكاملة السليمة خاضعة مستسلمة لما جاء به هذا القرآن الكريم ، ومنقادة له ، دون اعتراض ولا انتقاد ، ولا شك ولا ارتياب .

وأما العقول الناقصة أو الفاسدة ، بسبب اتباع الأهواء الباطلة ، أو الأراء الضالة ، التي تجعل العقول الناقصة في ظلمة وحيرة ، كالمُتَخَبِّطِ في الظلام ؛ فتحمل صاحبها على مخالفة ما جاء به القرآن الكريم .

كما قيل :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوىً وعقل عاصي الهوى يزداد تنويراً

وكما قيل :

قد تنكر العين ضوء الشمس مِنْ رمد

وَيُنكر الفمُ طعم الماء من سقم

فالأرمد الذي إشتد رمده قد لا يرى نور الشمس واضحاً جلياً ، والسقيم قد يُنكر حلاوة الماء العذب ، ويشعر بأنه مرٌّ ، وذلك لشدة سقمه .

فالعقل السليم النَّيِّر هو الذي يمشي على هَدْي القرآن الكريم ، ونوره المبين ، على الوجه الذي بينه صاحب البيان عن القرآن ، ألا وهو سيدنا محمد رسول الله ، إمام الأنبياء والمرسلين ، وخاتمهم ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وعلينا معهم ـ آمين .

الذي قال الله تعالى له : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وهذا كما قال الله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي : عظموه ﴿ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بجاهه صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم عندك ـ آمين .

وقال الله تعالى : ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ .

ومن هذه الآيات الكريمة ، وما تقدم قبلها ، يعلم صاحب العقل السليم علماً يقينياً أنَّ كل اعتراض يُعترض به على ما جاء في كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ـ أي : أحاديثه الشريفة ، فإنها بوحي من الله تعالى أيضاً ، ويسمى الوحي النبوي ـ فإن ذلك الاعتراض صادر عن سفاهة وحماقة ، وسخافة عقل ناقص ، لأنَّ الله تعالى بَيّن في محكم كتابه أنَّه معقول عند مَن يَعقل ، كما تقدم في قوله تعالى ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فإذا عقلوا ما جاء في الكتاب والسنة استلموا ، وانقادوا ، وعلموا أنه الأمر المعقول ، والحق المقبول قطعاً .

* * *

أبحاث والدي الكريم رحمه الله تعالىٰ في علم التوحيد

لقد كان سيدي الوالد رحمه الله تعالى واسع الاطلاع والتعمق في علم التوحيد ، على منهج المتكلمين ، وعلى منهج العارفين .

فقد اطلع على مُطَوَّلات المتكلمين في علم التوحيد ، كالمواقف ، والمقاصد ، والطوالع ، كما تقدم ، ودَرَسها دِرَاسَةً جيدة باستقصاء واستيفاء ؛ وعلق عليها .

كما أنّه اطلع اطلاعاً واسعاً على كتب العارفين وأبحاثهم في علم التوحيد ، فقرأ كُتُب الإمام حجة الإسلام الغزالي رضي الله عنه : إحياء العلوم ورسائله كلها ، وقرأ كتب الإمام الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي رضي الله عنه : الفتوحات المكية وفَهْرس لها بعض الأبحاث ، وشروح الفصوص ، كما قرأ رسائل الشيخ الأكبر رضي الله عنه ، وجميع تلك الكتب هي موجودة في مكتبته ، وقد علَّق على بعضها تعليقات علمية نافعة .

كما أَنَّه اطلع على ما هنالك من كتب العارفين وأئمة القوم ، ورسائلهم ، وكان يبذل الكثير من المال في شرائها ، وطلبها مِنْ شتى البلاد .

وكان سيدي الوالد رحمه الله تعالى إذا تعارض قول علماء الكلام في بعض المسائل مَعَ قول العارفين يرجح ما قاله العارفون ، ويأتي على ذلك بالأدلة والحجج القاطعة من الكتاب والسنة ليبين أنها الحق .

وإنني أذكر في هذه المناسبة مسألة واحدة ، وأترك بقية المسائل لمناسبات أخرى إن شاء الله تعالى .

العوالم الكونية لو أَنَّ الله تعالى قطع عنها إمداده لها بالوجود ، ماذا يكون حالها :

نقل سيدي الوالد رحمه الله تعالى عَن كثير مِنْ علماء الكلام أَنَّ الله تعالى لو قطع إمداده للعوالم بالإيجاد ـ لوقف العالم جامداً ساكناً .

قال سيدي الوالد : وهذا كلام غير صحيح ، بل الحق لو أنَّ الله تعالى قَطع إمداده للعوالم الكونية بالإيجاد لما بقي لها وجود ، وعادت للعدم الخالص ، كما هو مذهب المحققين من العارفين ، وأقام سيدي الوالد الكريم الأدلة على ذلك من عِدة وجوه :

الأول : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

فَبَيَّنَ الله تعالى أَنَّه إذا أراد إيجاد شيء فإنه : ﴿ يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فجميع الأشياء هي معلومة عنده سبحانه وتعالى ، ثابتة في علمه ، وكل شيء هو معلوم عنده ، فقبل أن يوجه إليه الأمر بكن سماه سبحانه شيئاً ، أي : شيئاً ثابتاً في العلم الإلَهي ، فلما وجَّه إليه الأمر بكن فيكون كائناً ، أي : موجوداً بالوجود الكوني ، ولكن هذا الشيء الذي أوجده سبحانه وتعالى بعدما كان في العدم ، هذا لا يملك الوجود على نفسه ، ويستغني به عن إمداد الله تعالى له بالإيجاد ، بل لا يزال فقيراً إلى الله تعالى بأن يمده بالإيجاد على الدوام حتى يُثَبَّت عليه الوجود الكوني ، فإذا قطع عنه مَدَد الإيجاد بقوله كن ؛ عاد إلى العدم .

قال الله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ أي : هو أمر يسير عليه سبحانه وتعالى ، فَبَيَّن الله تعالى في هذه الآية الكريمة أَنَّه هو الغني بذاته ، وأنه الحميد ، المتصف بجميع الكمالات التي لا نهاية لها ، فهو سبحانه وحده واجد الوجود ، الغني بذاته غنىً مطلقاً ، وأما العالم فهو فقير إليه سبحانه وتعالى ، فقراً ذاتياً في وجوده ، وبقاءه ، وغذائه ، وفي حركاته وسكناته ، وجميع ما هناك ، لا يستغني عن ربه الذي أوْجَده لحظة ولا أقل من ذلك .

فالله تعالى له الغنىٰ المطلق الذاتي ، وأما العالَم فهو فقير إلى ربه تعالى فقراً ذاتياً ، من جميع الوجوه والحيثيات ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ أي : ليس صعباً عسيراً عليه سبحانه ، بل هو عليه يسير .

ومن هنا قال بعض المحققين من العارفين : إنَّ إحضار عرش[1] بلقيس من اليمن إلى بيت المقدس ، قبل أن يرتدّ طرف نبي الله سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام إليه ، قال : إن ذلك الأمر الخارق للعادة الذي أجراه الله تعالى على يد وزير نبي الله سليمان آصف بن برخيا ، كما جاء ذلك في القرآن الكريم ، إنّ ذلك كان بقدرته تعالى ، فقطع سبحانه وتعالى مَدَدَ وجود عرش بلقيس من اليمن ، وقال له : كن في بيت المقدس بين يدي سليمان عليه السلام فكان ذلك قبل أن يرتدَّ طرف

---

(١) وهو سريرها التي تجلس عليه ، وكان كبيراً هائلاً ، مزخرفاً بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ ، قيل : إنه كان طوله ثمانين ذراعاً ، وعرضه أربعين ، وقيل : بل أكبر من ذلك بكثير ، كما هو مفصل في التفاسير .

سليمان إليه ، وبيان ذلك كما أخبر الله تعالى عن ذلك في سورة النمل .

قال الله تعالى مخبراً عن سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام :

﴿ قَالَ ﴾ أي : سليمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

لما عزمت بلقيس ووزراؤها وعدد كبير من جنودها على الذهاب والإتيان إلى نبي الله تعالى سليمان عليه السلام ، لتعلن إسلامها وَمَن معها ، أراد نبي الله تعالى سليمان عليه السلام أن يريها وَمَن معها أمراً خارقاً للعادة ، يَدل على صدق نبوته ، وقوة ملكه ، يحملها ويحمل مَنْ معها على إعلان إسلامهم وإيمانهم بنبوة نبي الله سليمان عليه السلام ، بلا توقف ولا تردّد ، فقال عليه السلام : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ العفريت هو القويُّ الشديد ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ أي : مجلسه للقضاء ، والحكم بين الناس ، وكان عليه السلام يجلس كل يوم من أوَّل النهار إلى الظهر للحكم والقضاء ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ .

فقال نبي الله تعالى سليمان على نبينا وعليه الصلاة والسلام قال : إني أريد أسرع من ذلك ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وهو آصف بن برخيا وزير سيدنا سليمان عليه السلام ، وكان من أولياء الله تعالى ، له اطلاع واسع على كتاب التوراة وزبور داود عليه السلام ، وقد أطلعه الله تعالى فيهما على الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، فقال لسيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ .

والمعنى : إنك يا نبي الله تعالى تنظر ببصرك إلى جهة اليمن ، فقبل أن يرتدَّ إليك طرفك يكون عرش بلقيس مُستقراً عندك ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ﴾ أي : نبي الله تعالى عليه السلام ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ أي : نَفْع شكره لربه وثوابه عائد خيره لنفس الشاكر ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ .

وفي إحضار آصف بن برخيا عرش بلقيس على الوجه الذي تقدم ، دليل قاطع على إثبات الكرامات لأولياء الله تعالى ، وإنَّ كل كرامة لولي فهي معجزة لنبيه ، يكرم الله تعالى بها وَلِيَّه بسبب إيمانه وصدقه في اتباعه لنبيه ، فهي كرامة للولي وهي معجزة لنبيه ، شاهدة بصدق نبوته ، فالكرامات للأولياء رضي الله عنهم داخلة في ظل معجزات الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم .

وإنما أمر سليمان عليه السلام آصف بإحضار عرش بلقيس على الوجه المتقدم ، ولم يباشر إحضاره بنفسه عليه السلام ، مع أنه أقوى على ذلك وأعلم بذلك ، وأعرف بذلك ؛ ليبين لبلقيس وملئها وجنودها وللناس عامة أَنَّ وزيره يقوم بهذه المهمة ، ولا يحتاج أمرها إلى مباشرته بنفسه عليه السلام .

وهذا أقوى في عظمة المُلك الذي أعطاه الله تعالى إياه وأعزّ ، وفيه بيان أن ذلك قد حصل على يد آصف بسبب صدقه ، واتباعه لسليمان عليه السلام ، فكان ذلك كرامة له ومعجزة لنبيِّ الله تعالى سليمان عليه السلام .

وقد ٱخْتُلِفَ في الاسم الأعظم الذي دعىٰ به آصف في إحضار عرش بلقيس :

فقال بعضهم : هو يا حيُّ يا قيوم .

وقال بعضهم : هو يا ذا الجلال والإكرام .

وقال بعضهم : هو يا الله يا رحمن .

وروىٰ ابن جرير وابن أبي حاتم ، عن الزهري أنه دعا بقوله : يا إلٰهنا وإلٰه كل شيء ، إلٰهاً واحداً ، لا إلٰه إلا أنت ائتني بعرشها . اهـ

وقد تكلمت على الاسم الذي إذا دُعي الله تعالى به أجاب ، وأنَّه متعدد ، وذكرت الأدلة على ذلك في كتاب (الدعاء) مُفصلة . والحمد لله .

الثاني من الأدلة على أن ذرات العوالم هي فقيرة بالذات إلى أنْ يُمدها الله تعالى بالوجود :

مِنْ جملة الأدلة التي كان سَيّدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى يَستدل بها على ذلك قول الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ ﴾ .

فهو سبحانه هو القائم بذاته ، والمقيم لغيره ، فهو سبحانه وحده المتصف بوجود الوجود الذاتي الذي لا نهاية له ، وإنّ جميع العوالم الكائنة هي موجودة بإيجاده ، وكائنة بتكوينه ، لا تستغني عن إمداده سبحانه لها بالوجود الإمكاني لحظة ، فهو سبحانه القيوم ، القائم بذاته ، أي : واجب الوجود بذاته ، والمقيم لغيره بالوجود الإمكاني .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ الآية ، فهو الله تعالى الحيُّ بذاته ، حياة لا نهاية لها ، المحيي والمميت لغيره .

روى الإمام مسلم ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قام فينا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم بخمس كلمات فقال : « إنّ الله تعالى

لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القِسطَ ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قَبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأَحْرَقَتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[1] .

فهو الله تعالى وحده الحي القيوم ، القائم بنفسه ـ أي : واجب الوجود الذاتي ـ المقيم لغيره ـ أي : الموجد لجميع الكائنات ، والعوالم العلوية والسفلية ، وهو الحافظ عليها وجودها بإمداده لها بالوجود ، فإذا قطع عنها إمداده بالوجود عادت إلى العدم ـ .

كما ورد أَنَّه قيَّام السماوات والأرض وَمَنْ فيهن ، وورد أَنَّه قيِّم السماوات والأرض ومن فيهن .

جاء في الحديث الذي رواه الأئمة الستة ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا قام يتهجَّد من الليل قال :

« اللهم ربنَّا لك الحمد أَنْت قيّم السماوات والأرض وَمَنْ فيهن ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض وَمَنْ فيهن ، ولك الحمد أنْتَ ملك السماوات والأرض وَمَن فيهن ، ولك الحمد أَنْتَ الحقُّ ، وَوَعْدك الحقّ ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حقٌّ ، والساعة حق .

اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنت ، وعليك تَوكلتُ ، وإليك أنبت ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أنت أعلم به مني ، أَنْتَ المقدِّم ، وَأَنْتَ

---

(١) وقد تكلمت على شرح هذا الحديث مفصلاً في كتاب : (صعود الأقوال ورفع الأعمال) وذكرت هناك مراتب رفع الأعمال فارجع إليه .

المؤخِّر ، لا إلٰه إلا أَنت ، ولا إلٰه غيرك » .

وفي رواية : « اللهم لك الحمد رب السماوات والأرض وَمَن فيهن » .

قال في « جامع الأصول » : هذه رواية البخاري ومسلم ، ثم قال : وفي رواية النسائي : « اللهم لك الحمد أَنْت نور السموات والأرض وَمَن فيهنَ » وَثَنَّى بالقيَّام ، وَثلث بالمَلِك ، أي : قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أولاً : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض وَمَن فيهن » ثم قال : « اللهم لك الحمد أنت قيَّام السموات والأرض وَمَن فيهن » ثم قال : « اللهم لك الحمد أنت مَلِك السموات والأرض ومن فيهن » ، ثم قال : « ولك الحمد أنت حقٌّ ، ووعدك حقٌّ ، والساعة حقٌّ ، والنبيون حقٌّ ، ومحمّد ـ صّلٰى الله عليه وآله وسَّلم ـ حقٌّ .

اللهم لك أَسْلَمْتُ ، وعليك توكلت ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمت ، اغفر لي ما قدمت وما أَخَّرت ، وما أعلنت وما أسررت ، أنت المقدِّم ، وأنت المؤخِّر ، لا إلٰه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم » .

الثالث من الأدلة التي استدل بها سيدي الوالد الكريم ، على أَنَّ جميع الكائنات ، وذرات العوالم ، كلها هي فقيرة إلى الله تعالى أن يمدها اللهتعالى بالوجود دائماً :

قال الله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ .

فهو الله تعالى الأحد فلا أحد قبله ، بل هو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، وليس مع الأحد أحد ، لأنه أحد سبحانه وتعالى .

﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ وهو سبحانه الذي يُصمد إليه ـ أي : يُقصد ويُرجع إليه ـ في جميع الحاجات والمهمات كلها ، فهو سبحانه الغنيُّ بذاته عن كل ما سواه ، والمفتقر إليه افتقاراً ذاتياً كل ما عداه ، سبحانه وتعالى .

فجميع الكائنات بذرّاتها محتاجة إليه ، وفقيرة إليه بذاتها ، ووجودها ، وحياتها ، وغذائها ، وهوائها ، ومائها ، وفي كل شيء ، وهو الغني بذاته عن كل شيء ، جل وعلا سبحانه وتعالى[1] .

* * *

(١) وقد تكلمت على تفسير هذه السورة ـ أي : سورة الإخلاص ـ مفصلاً فارجع إليه .

أبحاثه وتقريراته رحمه الله تعالى ورضي عنه حول محبة الله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وبيان التلازم بين المَحَبَّتَيْن

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فقد ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أصناف المحبوبات للإنسان من المخلوقات : الآباء ، والأبناء ، والإخوان ، والأزواج ، والعشيرة ، والأموال الكثيرة التي اقترفوها ـ أي : اكتسبوها وجمعوها ـ وتجارة ـ أي : تجارة عظيمة ـ من أمتعة أو أطعمة أو نحوهما ، اشتريتموها وبذلتم جهوداً وأموالاً كثيرة للحصول عليها ، رغبة منكم في ربحها الكثير ، فأنتم تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ـ أيْ : تُعجبكم الإقامة فيها لسعتها وأناقتها ، وزخرفتها ، وإتقانها ـ .

ثم بين سبحانه وتعالى أنه إنْ كان شيء من تلك الأصناف المحبوبة لديكم ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ ﴾ أي : انتظروا ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي : بعقابه سبحانه وتعالى لكم عاجلاً أو آجلاً ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ أي : الخارجين عن طاعة الله تعالى ، وطاعة رسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

ففي هذه الآية الكريمة دليل قاطع ، وبرهان ساطع على وجوب محبة الله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، محبة هي أعظم وأشَدُّ من محبة كل محبوب .

روى الشيخان وغيرهما ، عن أنس رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « ثلاث مَن كنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان : مَنْ كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وَمَن أحبَّ عبداً لا يُحبه إلاّ لله ، وَمَن يكره أَنْ يعود في الكفر بعد أنْ أَنْقَذَه الله منه كما يكره أَنْ يُقذَف في النار » .

وفي رواية : « ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أَنْ يكون الله ورسوله أَحبَّ إليه مما سواهما ، وَأَنْ يُحب في الله وَيُبغض في الله ، وَأَن توقد نَارٌ عظيمة فيقع فيها أحب إليه مِنْ أَنْ يُشرك بالله شيئاً »[1] .

وفي هذا الحديث دليل صريح على وجوب محبة الله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، على وجه أعظم مِن محبة ما سواهما ، وَأَنَّ مَنْ لَمْ يتحقق بذلك لم يجد حلاوة الإيمان وطعمه ، لأنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « وجد بهنَّ حلاوة الإيمان وطعمه » .

أما وجوب محبة الله تعالى فذلك لأن الله تعالى هو رب العالمين ، المتصف بجميع الكمالات والمحاسن التي لا نهاية لها ، والمتصف بالجمال المطلق ، على وجه ليس كمثله شيء في ذلك كله ، وَمِنَ المعلوم قطعاً أَنَّ الكمال والجمال محبوبان لذاتهما .

كما وأنه سبحانه وتعالى متصف بالعطاء والكرم ، والنوال والإنعام بأنواع النعمة والكرم على جميع عباده ، على وجه لا يُحصىٰ ولا يُستقصى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ .

فحُقَّ لمن له الكمال الذاتي ، والجمال المطلق ، ومنه العطاء

---

(١) قال الحافظ المنذري بعدما أورد هذا الحديث بروايتيه : رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي . اهـ .

والإنعام والكرم والنوال ، حُقَّ له أَنْ يكون أحبَّ إلى عباده مِن تلك المحبوبات التي تَقَدَّم ذكرها في الآية الكريمة .

فأسماؤه سبحانه وتعالى كلها حُسنى ، وصفاته كلها صفات كمالات عُلْيَا ، وكلها ذاتية له ، ولا تُحدّ ، ولا تعدُّ ، وكلها أزلية أبدية .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ الآية .

وقال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

فأسماؤه كلها حسنى[1] ، وهي لا نهاية لها ، فإنها تدل على صفات كماله سبحانه وتعالى ، وصفات كماله جلّ وعلا ما لها نهاية ، فأسماؤه ما لا نهاية ، كما يدل على ذلك الأحاديث الآتية :

جاء في الحديث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال :

« ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حزن فقال : اللهم إني عَبْدُك ، وابْن عبدك ، وابْن أَمتِكَ ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حُكمك ، عدْلٌ فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسْم هو لك ، سَمَّيْت به نفسك ، أَوْ أنْزلته في كتابك ، أوْ علَّمته أحداً مِن خلقك ، أَوِ استأثرت به في علم الغيب عندك ، أنْ تَجعل القُرآن العظيم ربيع قلبي ، وَنُوْر صدري ، وَجلاء حزني ، وذهاب همِّي ؛ إلا أَذْهب الله عز وجل هَمَّهُ ، وأَبْدَلَه مكان حزنه فرحاً » الحديث .

قال الحافظ المنذري : رواه أحمد والبزار وأبو يعلى ، وابن حبان في (صحيحه) ، والحاكم اهـ.

---

(١) ومن المعلوم في اللغة العربية أنَّ صيغة الحسنى هي صيغة تفضيل .

فقوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أَو اسْتأثرتَ به في علم الغيب عندك » يدل على أَنَّ هناك أسماءً لله تعالى لا يعلمها غيره سبحانه وتعالى .

وروى البيهقي وغيره ، عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله علمني اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب .

فقال لها صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « قومي فتوضئي ، وَٱدخلي المسجد ، وصَلِّي ركعتين ، ثم ادعى حتى أسمع » .

ففعلت فلما جلست للدعاء قال النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « اللهم وفِّقها » .

فقالت : (اللهم إني أسألك بجميع أسمائك الحسنى كلها ؛ ما علمتُ منها وما لم أعلم ، وأسألك باسمك العظيم الأعظم ، الكبير الأكبر ، الذي مَنْ دعاك به أَجَبْتَهُ ، وَمَنْ سألك به أعطيته) .

فقال النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أصبته أصبته »[1] .

فأسماء الله تعالى مَالَها نهاية ، وكلها حسنى ، وقد بَيَّن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنَّ هناك تسعة وتسعين اسماً ، مَنْ أَحصاها دخل الجنة ، فهي مِنْ جملة أسمائه سبحانه وتعالى ، لا أنها جميع أسمائه سبحانه وتعالى .

جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من حفظها دخل الجنة ، إنَّ الله وتر يحب الوتر » وفي رواية : « مَنْ أحصاها » .

قال في (تيسير الوصول) بعد أن أورد هذا الحديث باللفظ المتقدم

---

(١) كذا في (الدر المنثور) .

قال : أخرجه البخاري بهذا اللفظ ، ومسلم بدون ذكر الوتر ، قال : ورواه الترمذي وزاد فعدَّها :

« هو الله الذي لا إلَه إلا هو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبَّار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصوِّر ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعِزُّ ، المذلُّ ، السميع ، البصير ، الحكَم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العليّ ، الكبير ، الحفيظ ، المُقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشَّهيد ، الحقُّ ، الوكيل ، القويُّ ، المتين ، الوليّ ، الحميد ، المحصي ، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحيُّ ، القيُّوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدِّم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البَرُّ ، التَّواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذُو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المانع ، الضارُّ ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور » كذا في (التيسير) .

الله تعالى يُحبّ لجماله المطلق

فالله تعالى يحب لاتصافه بالكمالات الذاتية المطلقة ، التي لا تحد ولا تعد ، كما أنه سبحانه يحب لاتصافه بالجمال المطلقِ على وجه ليس كمثله شيء .

جاء في الحديث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا يدخل الجنة مَن كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر » .

فقال رجل : إن الرجل يُحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسنة ؟ ـ أي : أذلك من الكبر ـ.

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكِبر : بطر الحق[1] ، وغمص الناس[2] » قال في (التيسير) : رواه مسلم ، وأبو داود والترمذي .

فمن أسمائه تعالى الجميل .

وقد جاء في رواية ابن أبي الدنيا ، والطبراني ، وأبي الشيخ ، والحاكم ، وابن مَرْدُويه ، وأبي نعيم ، والبيهقي ـ في عدّ الأسماء التسعة والتسعين ـ : « الجميل الصادق »[3] .

الله تعالى يُحب لنواله وإحسانه وإنعامه

فالله تعالى يُحب لكماله المطلق الذي لا يتناهى ، وجماله الذاتي ، ونواله وعطائه ، وإنعامه المتدفق على مخلوقاته سبحانه وتعالى .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾ .

روى الترمذي وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أحبو الله لما يغذوكم به من نعمه ،

---

(١) أي رد الحق ، وعدم الاعتراف به كبراً .

(٢) أي : احتقار الناس ، فينظر إلى الناس نظرة استصغار ، وينظر لنفسه نظرة استكبار .

(٣) انظر (الدر المنثور) وغيره .

وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي » كما في (الجامع الصغير) رامزاً لحسنه .

وجاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم : « يَدُ الله ملأىٰ لا تُغيضها ـ أي : لا تنقصها ـ نفقة ، سحّاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنَّه لم يُغِض ما في يده[1] ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان : يخفض ويرفع »[2] .

وروى مسلم ، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال :

« **يا عبادي** إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرماً فلا تظالموا .

يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته ، فاستهدوني أَهدكم .

يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أُطعمكم .

يا عبادي كلهم عارٍ إلا مَنْ كسوته ، فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي إنَّكم تُخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم .

يا عبادي إنكم لَن تبلغوا ضرّي فتضروني ، ولَن تبلغوا نفعي فتنفعوني .

يا عبادي لَوْ أنَّ أوَّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقىٰ

---

(١) فإغراقه بالخير ، وإفاضته بالإنفاق على مخلوقاته لا يُنقص ذلك مما عنده شيئاً .

(٢) عزاه في (الفتح الكبير) للشيخين ، والترمذي ، والإمام أحمد ، وابن ماجه .

قلب رجل واحد منكم ؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي لَوْ أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أَفجر قلب رجل واحد ؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئاً .

يا عبادي لوْ أنَّ أوّلكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل واحد مسألته : ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر .

يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أُحصيها لكم ، ثم أُوَفّيكم إيّاها ، فَمن وجد خيراً فليحمد الله ، وَمَنْ وَجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » .

وروى الإمام الترمذي ، وأحمد ، وابن ماجه ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « يقول الله تعالى :

يا عبادي كُلُّكم ضالٌّ إلا من هديته ؛ فاسألوني الهدى أهدكم ، وكلُّكم فقير إلا مَنْ أغنيته ؛ فاسألوني أرْزُقكم ، وكلكم مُذنب إلا منْ عافيته ، فمن علم منكم أني ذُو قدرة على المغفرة واستغفرني غفرتُ له ولا أبالي .

ولو أَنَّ أوَّلكم وآخركم ، وحيكم وَمَيّتكم ، ورَطبكم ويابسكم ، اجتمعوا على أتقىٰ قلب عبد مِنْ عبادي : ما زاد ذلك في ملكي جناح بعوضة .

وَلو أنَّ أوّلكم وآخركم ، وحيّكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم ، اجتمعوا في صعيد واحد ، فيسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فَأعطيت كل سائل منكم ؛ ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لَوْ أَنَّ أَحدكم مرَّ بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأني جَواد واجد ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنَّما أمري لشيء إذا أردتُه أنْ

أَقُولَ لَهُ : كن فيكون » هذا لفظ الترمذي ، وقال : حديث حسن .

وفي هذه الأحاديث القدسية والنبوية يعلن الله تعالى لعباده ويعلمهم ، ويبين لهم ، كماله الذي لا يتناهى ، وجماله المطلق ، المنزه عن الشبيه والمِثْل ، ويُبَيِّن لهم أصناف جوده ، وعظيم إحسانه لعباده ، وَمَحبته سبحانه لنفعهم ، ورفع الحرج والضُرِّ عنهم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

فهو سبحانه وتعالى يُحِبُّ من عباده أن يعرفوه ، وأن يُحبوه ، ويخافوه ، وأن يطيعوه ، وأن يتقربوا إليه لأجل أن ينالوا مقام ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ، فحبهم الأشد والأعظم هو لله تعالى .

كما بَين سبحانه وتعالى لعباده سَعة رحمته ومغفرته ، فقال سبحانه : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ فمهما اتسعت رقعة الذنب وعظمت ، فرحمته ومغفرته أوسع وأعظم على الوجه الذي لا يتناهىٰ .

جاء في الحديث ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيه : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم : « فالله أرحم بعباده من هذه ـ أي : الوالدة ـ بولدها » رواه الشيخان .

وروى الإمام أحمد ، والترمذي وصححه ، وغيرهما ، عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه ، أنَّه أُتي بدابة ، فلما وضع رجله في الرِّكاب قال : بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله ـ ثلاثاً ، وكبر ـ ثلاثاً ، وقال : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ سبحانك لا إلَه إلا أنت ، قد ظلمت نفسي ،

فاغفر لي ذنوبي ، إنَّه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك .

فقيل : مم تضحك يا أمير المؤمنين ؟ .

قال : رأيت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فعل كما فعلت ثم ضحك ، فقلت : يا رسول الله مم ضحكت .

فقال : « يعجب الرب من عبده إذا قال : ربي اغفر لي ، ويقول : علم عبدي أنَّه لا يغفر الذنوب غيري » كذا في (الدر المنثور) .

وروى أبو نعيم ، عن الفضيل بن عياض رضي الله عنه أنه قال : ما مِن ليلة اختلط ـ أي : استحكم ـ ظلامها ، وأرخى الليل سربال سِترها ، إلا نادى الجليل جلَّ جلاله :

مَنْ أعظم مني جُوداً والخلائق لي عاصون وأنا لهم مُراقب ، أَكْلَؤُهم ـ أي : أحفظهم ـ في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني ، وأتولَّى حفظهم كأنهم لم يُذنبوا فيما بيني وبينهم ، أَجُود بالفضل على العاصي ، وأتفضل على المسيء .

مَنْ ذَا الذي دَعاني فلم أستجب له ، أمْ مَنْ ذا الذي سألني فلم أعطه ، أَمْ منْ ذا الذي أناخ ببالي فنحَّيته ، أنا الفضل ، ومني الفضل ، أنا الجواد ومني الجود ، وأنا الكريم ومني الكرم ، ومِنْ كرمي أنْ أَغفر للعاصين بعد المعاصي ، ومِنْ كرمي أنْ أُعطي العبد ما سألني ، وَأعطيه مَالَم يسألني ، وَمِنْ كرمي أن أُعطي التائب كأنه لم يعصني ، فأين إلى غيري يهرب الخلائق ؟!!! اهـ.

فهو سبحانه وتعالى واسع الرحمة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ ، كما أنه واسع المغفرة ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أعلن ذلك لعابده ليحبوه ، فيسألوه أن يرحمهم ، وَيسألوه أن

يغفر لهم ، مَهما عظمت ذنوبهم ، وكثرت خطاياهم ، فإذا تابوا تاب عليهم ، وإذا استغفروه غفر لهم .

روى الترمذي ، عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنَّكَ ما دعوتني وَرجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بَلَغت ذنوبك عَنان السماء ، ثم استغفرني غفرت لك ، يا ابن آدم إنّك لو أتيتني بقُراب ـ أي : بملء ـ الأرض خطايا ، ثم لقيني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقُرابها مغفرة » قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وروى الحاكم في (صحيحه) عن جابر رضي الله عنه ، أن رجلاً جاء إلى النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وهو يقول : واذنوباه ، مرتين أو ثلاثاً ـ أي : يشكو كثرة ذنوبه وخطاياه ـ.

فقال له النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « قل : اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتك أرجىٰ عندي من عملي » فقالها .

ثم قال له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « عد » فعاد ـ أي : قالها ثانياً .

ثم قال له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « عُد » فعاد ـ أي : قالها ثالثاً ـ.

فقال له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « قم قد غفر الله لك » .

وروى الإمام أحمد من رواية أخشن السدوسي قال : دخلت على أنس رضي الله عنه فقال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم الله : لغفر لكم » .

فبالتوبة والاستغفار يغفر الله تعالى ذنوب العبد وخطاياه ، مهما كثرت

وكبرت ، واشتدت وعظمت ..

روى الإمام مسلم ، عن أبي موسى رضي الله عنه ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إنّ الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهارِ ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مُسيء الليل ؛ حتى تطلع الشمس من مغربها » .

وفي هذا بيان وإعلام للعباد بِأن الله تعالى يَقبل توبة التائب في أيِّ وقت ، وَفي أيِّ لحظة ، في الليل أو النهار ، وفي هذا تحريض للعباد وحثٌّ على التوبة إلى الله تعالى ليتوب عليهم ، ويقربهم حتى ينالوا مقام : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ .

وعن زرّ بن حُبيش قال : حدثنا صفوان بن عسَّال المرادي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « باب مِن قبل المغرب مسيرة عرضه ـ أي : يسير الراكب في عرضه ـ أربعين ـ أو سبعين سنة ـ خلقه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض ، مفتوح للتوبة ، لا يُغلَق حتى تطلع الشمس مِنْ مَغْربها »[1] .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يُغرغر »[2] أخرجه الترمذي وصححه .

فعلى العبد أن يعجل في التوبة من ذنوبه قبل أن يدركه الموت ، فربما جاءه بغتة .

وروى الترمذي ، عن أنس رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله صلّىٰ الله

---

(١) قال في (تيسير الوصول) : أخرجه الترمذي وصححه .

(٢) أي : يصبح في سكرات الموت .

عليه وآله وسلَّم قال : « كلّ بني آدم خطَّاء ، وخير الخطَّائين التوابون » .

والله تعالى يحب التوابين قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وهو سبحانه يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه سبحانه :

روىٰ الشيخان واللفظ للبخاري ، عن الحارث بن سويد رحمه الله تعالى قال : حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حديثين : أحدهما عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم والآخر عن نفسه ، قال : (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أنْ يقع عليه ، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذُباب مرَّ على أنفه ، فقال هكذا ـ أي : بيده ـ فذبَّه عنه) أي : طرده عنه .

يعني أنَّ المؤمن يخاف من عقاب الله تعالى إذا وقع منه ذنوب ، كأنَّ جبلاً فوقه يخاف أن يقع عليه ، وأما المنافق فلا يبالي بذنوبه ، ولا يخاف عاقبتها .

ثم قال ابن مسعود رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن ، من رجل نزل في أرض دَوِيَّةٍ[1] مهلكة ، معه راحلته[2] عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبتْ راحلته ، فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء ، قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده » .

---

(١) الدَّوِيَّة هي : الفلاة والصحراء .

(٢) الراحلة : البعير الذي يركبه الإنسان ويحمل عليه متاعه .

وفي رواية لمسلم قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه ، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضَّطجع في ظلها ـ قد أيس من راحلته ـ فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي ، وأنا معه حيث يذكرني ، واللهِ للهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في الفلاة » ـ أي : يجد راحلته في الصحراء بعد أن عجز عن البحث عنها ـ .

قال : « ومن تقرَّب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ، وَمَنْ تقرب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ، وإذا أقبل إليَّ يمشي أقبلت إليه أُهرول » .

قال الحافظ المنذري : رواه مسلم واللفظ له ، والبخاري بنحوه . اهـ

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « من تقرَّب إلى الله عز وجل شبراً تقرب إليه ذراعاً ، وَمَن تقرب إليه ذراعاً تقرَّب إليه باعاً ، وَمَن تقرّب إلى الله عز وجل ماشِياً أقبل إليه مُهَرْولاً ، والله أعلى وأجلُّ ، والله أعلى وأجلُّ ، والله أعلى وأجلُّ »[2] .

---

(١) كذا في (جامع الأصول) . الستة : (صحيح) البخاري ومسلم و(سنن) الترمذي وأبي داود والنسائي و(موطأ) الإمام مالك رضي الله عنهم .

(٢) قال في (ترغيب) المنذري : رواه أحمد ، والطبراني وإسنادهما حسن . اهـ والذراع ضعف الشبر ، والباع ضعف الذراع ، وقد شرحت الأحاديث الشريفة التي تقدم ذكرها ، وتكلمت كلاماً مفصلا على مراتب القرب في كتاب (التقرب إلى الله تعالى) فارجع إليه تجد ما يُسرُّ به المؤمن ، والحمد لله رب العالمين .

فالله عز وجل يُحب مِنْ عبده أَنْ يتقرب إليه حتى يُقربه سبحانه وتعالى ، ويجعله في مقام يُحبهم ويحبونه .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا ﴾ إلى الشهوات ﴿ عَظِيمًا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فَمِنْ رحمته سبحانه وتعالى بعباده ، وما يوجب عليهم أن يحبوه سبحانه ، أنه سبحانه وتعالى فتح لهم باب التوبة ؛ حتى تطلع الشمس من مغربها كما تقدم في الحديث الذي رواه مسلم .

وجاء في الحديث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش للنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : ادع لَنا ربَّك يَجعل لنا الصفا ذهباً ، فإن أصبح ذهباً اتّبعناك .

فدعا ربه ، فَأتاه جبريل عليه السلام فقال : إنّ ربك يُقرئك السلام ويقول لك : إن شئتَ أجعل لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر منهم ـ أي : بعد ذلك ـ عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين[1] ، وإنْ شِئتَ فَتَحْتُ لهم باب التوبة والرحمة .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « بل باب التوبة والرحمة » .

قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح .

---

(١) وذلك لنقضهم عهدهم مع الله تعالى ، فإن اقتراحهم وطلبهم أن يجعل لهم الصفا ذهباً حتى يؤمنوا ؛ هذا فيه إعطاؤهم عهداً وثيقاً مع الله تعالى ، فكأنهم يقولون : وإذا لم نُؤمن بعد جعل الصفا ذهباً فليعذبنا .

وجاء في الحديث الذي رواه ابن عساكر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً[1] : « للهُ أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضالِّ الواجد ، ومِنَ الظمآن الوارد » .

والضال الواجد : هو الذي وَجَد راحلته في الصحراء بعد فقدانها ، **والظمآن الوارد** : هو الذي اشتد عليه العطش ثم وَرد الماء ، **والعقيم الوالد** : هو الذي لم يَلد له ولد لعقمه ، حتى إذا كبرت سنه جاءه الولد بعد يأسه من أن يَلد .

علامة المحبة الصادقة لرب العالمين جَلَّ وعلا

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

روى ابن جرير وغيره ، عن الحسن قال : قال قوم على عهد النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : يا محمد إنا نُحب ربنا .

فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ .

قال : فجعل الله تعالى اتباع نبيه محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عَلَماً ـ علامة ـ لحبه سبحانه ، وعَذَاب من خالفه . اهـ أي : وعلامةً على عذاب من خالفه .

وروى ابن المنذر ، عن ابن جريج قال : كان أقوام يزعمون أنهم يُحبون الله تعالى يقولون : إنا نحب ربنا ـ أي : ولم يتبعوا رسول الله

---

(١) انظر (الفتح الكبير) .

صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ فأمرهم الله تعالى أن يتبعوا نبيه محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وجعل اتباع نبيه محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عَلَماً لحبه تعالى .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»[1] .

وروى عَبْدُ بن حميد ، عن الحسن قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « مَنْ رغب عن سنتي فليس مني » ثم تلا هذه الآية : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إلى تمام الآية .

فدلتْ هذه الآية الكريمة أولاً : على أنَّ علامة صدق المحبة لله تعالى حقاً هي اتباع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

ودلت ثانياً : على أنَّ محبة الله تعالى للعبد لا تُنال إلا باتباع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فمن اتبع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقد صدق في محبته لله تعالى ، ونال مقام أن الله تعالى يحبه ، كما قال تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ .

ودلَّت ثالثاً : على أنّ مَنْ نال مقام أنَّ الله تعالى يحبه : غفر الله تعالى له ذنوبه ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وبذلك يكون العبد مُحباً وَمَحبوباً ، يُحب الله تعالى ويحبه الله تعالى ، وهذه منزلة عالية ، ومرتبة رفيعة ، ومقامها عظيم ، وشرفها كبير ، وأهلها على مراتب متعددة ومتفاوتة ؛ بعضها أعلى من بعض .

روى الإمام البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنَّ الله تعالى قال : مَنْ عادىٰ لي

---

(١) قال الإمام النووي رحمه الله تعالى : حديث حسن صحيح رويناه في كتاب (الحجة) . اهـ

وَليّاً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه ، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، وَيَده التي يبطش بها ، وَرِجْله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه » .

وقد تكلمت على شرح هذا الحديث كلاماً مفصلاً في كتاب (التقرب إلى الله تعالى) .

وَقَدْ تكلم العارفون وأئمة القوم رضي الله عنهم في المحبة ، وذكروا صفات المحبين العارفين ، وأحوالهم الدالة على صدق محبتهم .

قال الإمام أبو بكر الكتاني رضي الله عنه : جَرتْ مسألة المحبة بمكة أعزَّها الله تعالى أيَّام الموسم ـ موسم الحج ـ وتذاكروا ـ أي : أئمة القوم العارفون ـ في المحبة ، فتكلَّم جُلٌّ من الشيوخ ، وكان الإمام الجنيد أصغرهم سِنّاً ، فلما انتهى الدور إليه قالوا له : هاتِ ما عندك يا عراقي .

فأطرق الإمام الجنيد رأسه ، وَدَمَعتْ عيناه ثم قال : المحبُّ هو عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هيبته ، وانكشف له الجبَّار مِنْ أَستار غيبه جل وعلا ، وصَفَا شربه من كأس وُدِّه ، فإنْ تكلم فبالله ، وإن نطق فَعَنِ الله تعالى ، وإنْ تحرَّك فبأمر الله تعالى ، وإنْ سكن فمع الله تعالى ، فهو بالله ، ولله ، ومع الله تعالى .

فقالوا : ما على هذا مزيد ، جزاك خيراً يا تاج العارفين . اهـ

فهذا هو المحب الكامل المحبة ، لقد فَنِيَ في محبوبه كما فنيتْ باء الحب الأولى في الثانية ، لقد فنيت أفعال المحب وأعماله وأقواله في الله تعالى ، كل ذلك بالله ، ولله ، ماله غرض ولا مقصود سواه ، كما فنيت

صفاته السمعية والبصرية ، والعقلية والعلمية ، وحواسُّه ومداركه في الله تعالى ، فكل ما يَرِد على سمعه أو بصره أو عقله أو قلبه مما لا يرتضيه الله تعالى ، ولا يحبه سبحانه ؛ فإنَّ المحب لا يسمعه ، ولا يحبه ، ولا يرضاه ، فهو يحب ما يحبه الله تعالى ، ويكره ما يكرهه الله تعالى .

محبة النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

وأما محبة النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فالواجب علىٰ المؤمن أَنْ يكون رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أَحَبَّ إليه مِنْ نفسه ، ومِنْ والده ، وولده ، والناس أَجمعين ، وذلك لأنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو أولىٰ بالمؤمنين من أنفسهم ، أرحم بهم ، وأرأف بهم ، وأشفق عليهم ، وأعطف عليهم ، وأحرص عليهم من أنفسهم ، وآبائهم وأمهاتهم ، والناس أجمعين ، وقد أعلم الله تعالىٰ عباده بذلك ، وأعلن لهم ذلك قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ ﴾ الآية الكريمة ، فالواجب الإيماني المحتَّم عليهم قطعاً أن يكون رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أَحَبّ إليهم من أنفسهم ، ومقدماً علىٰ أنفسهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ .

روىٰ الإمام أحمد في (مسنده) عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه وفيه ، قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من نفسه » الحديث .

وروىٰ البخاري نحوه في كتاب الأيمان والنذور وغيره .

وكان صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يعلن بأَوْلَوِيَّتِهِ بالمؤمنين من أنفسهم :

روىٰ الإمام البخاري عند قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ

أَنفُسِهِمْ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « ما مِنْ مؤمن إلا وأنا أولىٰ الناس به في الدنيا والآخرة اقرأوا إن شئتم : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ فأيُّما مؤمن ترك مالاً فَلْترثه عَصَبته مَنْ كانوا ، وإن ترك دَيْناً أو ضياعاً[1] فليأتني فأنا مولاه » .

وروىٰ الإمام أحمد في قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ روىٰ عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه كان يقول : « أنا أولىٰ بكل مؤمن من نفسه ، فأيُّما رجل مات وترك ديناً فإليّ[2] ، وَمَنْ ترك مالاً فهو لورثته » .

وروىٰ الشيخان ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه مِنْ والده ، وولده ، والناس أجمعين » .

فالواجب علىٰ المؤمن أن يكون صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أحب إليه مِنْ خلق الله تعالىٰ أجمعين ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أحَب الخلق إلىٰ الله تعالىٰ ، كما أخبرنا عن ذلك رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم :

روىٰ الدارمي ، والترمذي ، وأبو نعيم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ينتظرونه ، فتذاكروا :

فقال بعضهم : عجباً[3] إنّ الله تعالىٰ اتخذ مِن خلقه خليلاً : فإبراهيم خليله .

---

(١) الضياع بفتح الضاد : العيال الفقراء ، وهو مصدر في الأصل كما في (النهاية) .

(٢) أي : فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُوَفِّي عنه .

(٣) يعني : إنَّ هذا أمر عظيم وفضل كبير .

فقال آخر : ماذا بأعجب من أنه ـ سبحانه ـ كلَّم موسىٰ تكليماً .

وقال آخر : فعيسىٰ كلمة الله وروحه .

وقال آخر : فآدم اصطفاه الله تعالىٰ .

فخرج عليهم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وقال : « قد سمعت كلامكم : إنَّ إبراهيم خليل الله تعالىٰ وهو كذلك ، وموسىٰ نجيُّ[1] الله وهو كذلك ، وعيسىٰ روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله تعالىٰ وهو كذلك .

ألا وأنا حبيب الله تعالىٰ ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفّع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول مَنْ يُحرك حلق الجنة ولا فخر ، فيفتح الله تعالىٰ فيدخلنيها وَمَعِي فقراء المهاجرين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين علىٰ الله ولا فخر »[2] أي : لا أقول ذلك تكبراً وتعاظماً علىٰ الناس ، بل تحدثاً بنعمة الله تعالىٰ ، شاكراً له سبحانه ، وحامداً لله تعالىٰ الذي أعطاني هذه المرتبة اهـ من (شرح المواهب) .

فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أحبُّ الخلق إلىٰ الله تعالىٰ ، وأكرمهم علىٰ الله تعالىٰ ، فيجب علىٰ المؤمن أَنْ يكون رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أحبَّ خلق الله تعالىٰ إليه .

روىٰ الترمذي ، والحاكم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال : « أحبُّوا الله تعالىٰ لما يَغْذوكم به من نعمه ، وأَحبوني لحب الله ، وأَحبوا أهل بيتي لحبي » أي : لحبي إياهم .

---

(١) أي : ناجاه الله بالتكليم كما قال سبحانه : ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ .

(٢) انظر (الخصائص الكبرىٰ) للحافظ السيوطي رحمه الله تعالىٰ .

ومعنىٰ : أحبوني لحب الله . أي : لحب الله إياي ، فإنه اتخذني حبيبه الأكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وقد نقل الإمام الحافظ القسطلاني في (المواهب اللدنية) عن العارف الكبير والعلامة الشهير ، سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه أنه قال :

أَلاَ يا مُحبَّ المصطفىٰ زِدْ صَبابةً وضمِّخ[1] لسان الذكر منك بطيبه
ولا تعبأنْ بالمبطلين فإنما علامة حب الله حبُّ حبيبه

صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وعلينا معهم أجمعين ، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله تعالىٰ رب العالمين ـ آمين .

روىٰ الشيخان وغيرهما ، عن أنس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « ثلاث مَنْ كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان : أنْ يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأنْ يُحب المرء لا يحبه إلا لله ، وَأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذا أنقذه الله منه : كما يَكره أن يُقذف في النار » وقد تقدم هذا الحديث وشرحه .

وفي رواية : « ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه : أَنْ يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأَن يُحب في الله وَيُبغض في الله ، وَأن تُوقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه مِنْ أَنْ يُشرك بالله شيئاً » .

وفي هذا الحديث دليل علىٰ أنَّ الإيمان يُوجب علىٰ المؤمن أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وبذلك يكمل إيمانه ، ويجد

---

(١) قال الشارح الحافظ الزرقاني : وضَمِّخ بمعجمتين بينهما ميم أي : لَطِّخ . اهـ .

حلاوة الإيمان وطعمه ، وليس ذلك من باب الحب العاطفي وإنّما هو الحب الإيماني ، المتمكن في القلب : عقيدة وإيماناً .

فمحبة المؤمنين لله تعالىٰ ، ومحبتهم لرسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، كل من المحبتين صادر وتابع وناشئ عن الإيمان بأنه لا إلٰه إلا الله ، والإيمان بأنَّ محمداً رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، لاَ تَدخّل للعاطفة في ذلك قطعاً .

روىٰ الشيخان ، عن أنس رضي الله عنه ، أَنّ رجلاً سأل رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم متىٰ الساعة ؟ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ما أعددتَ لها » ؟ .

قال : لا شيء ، إلا أني أحب الله ورسوله .

فقال له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنت مَعَ مَنْ أحْبَبتَ » .

قال أنس رضي الله عنه : فما فرحنا بشيء فرحنا ـ أي : مثل فرحنا ـ بقول النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنت مع من أحببتَ » .

قال : فأنا أحب النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وأبا بكر وعمر وأرجو أَن أكون معهم بحبي إياهم .

وفي رواية للبخاري : أن رجلاً من أهل البادية ، أتىٰ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال : يا رسول الله متىٰ الساعة ؟ .

قال : « ويلك وما أعددت لها » ؟ .

قال : ما أعددت لها ، إلا أني أحب الله ورسوله .

فقال له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنك مَعَ مَنْ أحببت » .

قال أنس رضي الله عنه : ونحن كذلك ؟ .

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « نعم » ففرحنا يَوْمَئذٍ فرحاً شديداً .

ورواه الترمذي : ولفظه قال أنس : رأيت أصحاب رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيء أشد منه ، قال رجل : يا رسول الله الرجل يُحب الرجل علىٰ العمل مِنَ الخير يعمل به ولا يعمل مثله ؟ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « المرء مَعَ من أحب » .

وروىٰ الشيخان ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلىٰ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال : يا رسول الله كيف ترىٰ في رجل أحب قوماً ولم يلحق بهم ؟ ـ أي : لم يعمل مثلهم ـ.

فقال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « المرء مَعَ مَنْ أحب » .

وروىٰ أبو داود ، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : (يا رسول الله الرجل يُحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم ؟ .

فقال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنت يا أبا ذر مَعَ مَنْ أحببت » .

قال : فإني أحب الله ورسوله .

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فإنك مَعَ من أحببت » .

فأعادها أبو ذر رضي الله عنه فأعادها رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم) .

وروىٰ الإمام أحمد بإسناد جَيِّد ، عن السيد عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أَنَّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « ثلاث أحلف عليهنّ :

لا يجعل الله مَنْ لَهُ سهم في الإسلام كَمَنْ لا سهم له ، وأسْهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة .

ولا يتولّىٰ الله تعالىٰ عبداً في الدنيا فيولِّيه غيره يوم القيامة ـ أي : بل يتولاه الله تعالىٰ أيضاً يوم القيامة ـ.

ولا يحب رجلٌ قوماً إلاّ جعله الله تعالىٰ معهم[1] » .

* * *

(١) انظر جميع ذلك في (ترغيب) الحافظ المنذري .

كلام أئمة القوم العارفين بالله تعالى الثابت نقله عنهم هو مستمد من الكتاب والسنة وإنهم مِن أشد الناس تمسكاً بالكتاب والسنة

كان سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالى يُبَيِّن أن كلام العارفين الكُمَّل ، الثابت نقله عنهم لا يُمكن أن يخالف ما جاء في الكتاب والسنة ، ولا يمكن أن يخالف أحكام الشريعة المحمدية صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قطعاً .

فإنّ كلامهم في أمور التوحيد والإلٰهيات ، وإشارات الآيات القرآنية هو صادر عن فهم خاص من الله تعالىٰ ، فوق الفهم العامّ ، ولا يمكن أن يختلف مَعَ الفهم الظاهر العامّ ، بل هو من باب فهم فوق فهم ، يؤتيه الله تعالىٰ عبداً في كتابه ، أو أحاديث رسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

كما أنّه لا يمكن أَنْ يكون ذلك الفهم مخالفاً لقواعد اللغة العربية وأساليبها ، فإنَّ القرآن الكريم هو كما قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : تعقلون معانيه ، وتفهمونها علىٰ قواعد العربية الفصيحة ، التي نزل بها ، وهكذا الأحاديث النبوية ، فإنها جاءت بالبيان عن القرآن الكريم ، كما هو معلوم .

فإذا نُقِلَ عن بعض أئمة القوم العارفين ما هو مخالف لكتاب الله تعالىٰ ، أو سنة رسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وأحاديثه ، فهو مردود ، لأنه يكون مدسوساً ومكذوباً علىٰ من نُسب إليه من أئمة العارفين قطعاً .

وكان سيدي الوالد الكريم كثيراً ما يذكر ، ما نقله الشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي رضي الله عنه في (الفتوحات المكية) ، عن شيخ الطائفتين : العلماء والعرفاء ، الإمام الجليل الشيخ الجنيد رضي الله عنه ، فإنه قال : عِلمنا هذا مَضْبوط ـ أي : مقيد ـ بالكتاب والسنة ، مَنْ لَمْ يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، ولم يَتَفَقَّه : لا يُقْتَدىٰ به . اهـ كلام الإمام الجنيد .

قال الشيخ الأكبر بعدما نقل هذا الكلام عن الإمام الجنيد : فلا يخرج علم الولي جملة واحدة عن الكتاب والسنة ، فإن خرج أحد عن ذلك فليس بعلم ، ولا علم ولاية ، بل إذا حقَّقه جهلاً إلخ . أي : ليس ذلك بعلم كسبي ولا وهبي بل هو جهل .

وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه : الطرقُ إلى الله تعالى كُلُّها مسدودة على الخلق ، إلاَّ مَنِ اقتفى ـ أي : اتبع ـ أثر رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، واتبع سنته ، ولزم طريقته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم . اهـ .

فقد يؤتي الله تعالى عبداً من عباده المقربين فهماً من الكتاب الكريم ؛ فوق الفهم العام ، ولكن لا يختلف مَع الفهم الظاهر العام ، وَمُوافق لما جاء عنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في أحاديثه ، فإن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو صاحب البيان عن القرآن ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ أي : أن يبينه الله تعالى لرسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ثم إن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو يبينه للناس ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية .

وروى الإمام البخاري في (صحيحه) عن أبي جحيفة قال : قلت

لعلي رضي الله عنه هل عندكم ـ أي : آل رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ كتاب ـ أي : كتاب خصه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بكم ـ .

قال رضي الله عنه : (لا ، إلاّ كتاب الله ، أو فهم أُعطيه رجل مسلم) ـ أي : أعطاه الله تعالى إياه ـ .

وفي رواية قال : (لا والذي فَلَقَ الحبة وبرأ النَّسَمَةَ) .

وفي رواية : (ما عندنا إلا ما في القرآن ، إلا فهماً يُعطىٰ رجل في الكتاب) . اهـ أي : يعطيه الله تعالى فهماً في كتابه سبحانه .

ولذلك كان سيدنا علي رضي الله عنه يقول : لو تكلمتُ لكم على سورة الفاتحة لأوقرتُ سبعين بعيراً . اهـ

يعني : يملأ كتباً من معاني سورة الفاتحة تحتاج إلى سبعين جملاً يحملها . اهـ .

فالعلماء العاملون ، والأولياء العارفون متمسكون بالكتاب والسنة .

قال الإمام الجنيد أيضاً كما نقله عنه في (الرسالة القشيرية) قال : (مَن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) .

وقال أيضاً : (مذهبنا هذا ـ أي : مذهب العارفين ـ مُشَيَّد بحديث رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم) . اهـ

وقال الشيخ العارف ذو النون المصري رضي الله عنه : (من علامة المُحِبِّ لله تعالى متابعة حبيب الله تعالى صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في : أفعاله ، وأخلاقه ، وأوامره ، وسنته) . اهـ .

وقال العارف الشيخ أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : (ربَّما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم ، فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين : الكتاب والسنة) .

وأخرج أبو نعيم في (الحلية) عن سهل بن عبد الله رضي الله عنه قال : (أصولنا ـ أي : العارفين ـ ستة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق) .

وَنَقل عنه أيضاً في (الحلية) قال : (مَنْ كان اقتداؤه بالنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لم يكن في نفسه اختيار لشيء من الأشياء) . اهـ أي : بل شأنه اتباعه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، مع التسليم التامّ بلا تردّد ولا توقف .

وقال العارف بالله تعالى أبو علي الدقاق : (قصد أبو يزيد البسطامي بَعضَ من يوصف بالولاية ـ أي : يقول بعض الناس إنّه وَليّ ـ فَلَمَّا وافىٰ مسجده ـ أي : وصل إلى مسجده الذي يُصلي فيه ـ قعد أبو يزيد ينتظرُ خروجه ، فخرج الرجل وتنخَّم في المسجد ، فانصرف أبو يزيد ولم يُسلم عليه .

وقال أبو يزيد : هذا الرجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فكيف يكون أميناً على أسرار الحق) . اهـ

أي : فكيف يكون وَلِيًّا لله تعالى مقرباً إلى الله تعالى ، فانظر في قوة تمسك أئمة القوم بالكتاب والسنة .

ومن الأدلة على الفهم الخاص . أي : تفهيم الله تعالى لمن شاء مِنْ عباده الصالحين والمقربين ، فهماً فوق فهم .

روى الإمام البخاري ، والترمذي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر ـ أي : في مجلس الشورى ـ قال : وكان بعضهم وَجَدَ في نفسه فقال : لِمَ تُدخل هذا معنا وَلَنا أبناء مثله ؟

فقال عمر رضي الله عنه : إنه مِنْ حَيث علمتم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما فدعاني عمر رضي الله عنه ذات يوم فأدخلني معهم ، فقلتُ : إنَّه ما دعاني إلا ليُريهم ـ أي : ليروا أنَّ ابن عباس ممن أُوتي الفهم والحكمة ـ.

فقال عمر رضي الله عنه : ما تقولون في قول الله عز وجل : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ .

أي : ما هو غاية فهمكم من هذه السورة الكريمة .

فقال بعضهم : أُمِرْنا أَنْ نحمد الله تعالى ، ونستغفره إذا نُصرنا وفتح علينا .

وسكت بعضهم فلم يَقل شيئاً .

فقال عمر رضي الله عنه : أكذا تقول يا ابن عباس .

قلت : لا .

قال : فما تقول ؟.

قلت : هو أجَل رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، أعلمه له ، فقال سبحانه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ ـ أي : هي نعي له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ.

فقال عمر رضي الله عنه : ما أعلم منها إلا ما تقول يا ابن عباس . يعني : أن عمر رضي الله عنه هكذا يفهم من السورة .

وقول عمر رضي الله عنه : إنه ـ أي : ابن عباس ـ مِنْ حَيث علمتم ، يُشير بذلك إلى دعاء رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بقوله : « اللهم علّمه الكتاب والحكمة » .

روى الشيخان وغيرهما ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : ضمَّني رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلى صدره وقال : « اللهم علّمه الكتاب والحكمة » .

وفي هذه الضمة الشريفة أنواع مِنَ الإفاضات بالمعارف والأسرار والأنوار .

وَمِنْ ذلك ما رواه البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً لأصحاب النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فِيمْ ترون هذه الآية نزلت ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ ﴾ ـ أي : ريح حار شديد ـ ﴿ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

فقالوا : الله أعلم .

فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم .

فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء ـ أي : لي فيها فهم ـ يا أمير المؤمنين .

فقال عمر : يا ابن أخي قل ، ولا تُحقِّر نفسك .

فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضُربت مثلاً لعمل .

فقال عمر : أيّ عمل .

قال ابن عباس : لعمل .

قال عمر : لرجل غني يَعمل بطاعة الله تعالى عز وجل ، ثم بَعَث الله تعالى له الشيطان فعمل بالمعاصي ، حتى أغرق أعماله) أي : أهلك أعماله الصالحة التي عملها مِنْ قبل ، فساءت عاقبته ـ عياذاً بالله تعالى .

فَأبطل بعمله المعاصي عند كبر سنه ما أسلفه فيما تقدم من العمل الصالح .

جاء في الحديث عن أبي بكرة رضي الله عنه ، أن رجلاً قال : يا رسول الله أيُّ الناس خير ؟

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « مَنْ طال عمره وحسن عمله » اللهم اجعلنا منهم .

فقال الرجل : فأيُّ الناس شرّ .

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « مَنْ طال عمره وساء عمله » ـ نعوذ بالله العظيم من ذلك ـ رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ، ورواه الحاكم .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا تتمنوا الموت ، فإنّ هول المُطَّلع ـ أي : القيامة ـ شديد ، وإنّ مِنْ السعادة أَن يطول عمر العبد وَيَرزقه الله تعالى الإنابة » ـ أي : الرجوع إليه ـ رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، والبيهقي كما في (ترغيب) الحافظ المنذري .

ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

قال : يُلين القلوب بعد قسوتها ، فيجُعلها مخبتة منيبة ، ويحيي القلوب الميتة بالعلم والحكمة ، وإلاّ فقد عُلِم إحياء الأرض بالمطر مُشاهدة . اهـ

والمراد بقوله : يحيي القلوب الميتة بالعلم . أي : بالعلم الذي جاء به الكتاب العزيز ، والحكمة . أي : السنة النبوية ، وهي أحاديثه صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

ولا بدَّ للفهم الظاهر العام والفهم الخاص من القرآن أن يكون كُلٌّ منهما موافقاً اللّغة العربية الفصيحة ، التي نزل بها القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي : تعقلون معانيه على وفق اللغة العربية الفصحى .

كما لا بدَّ لكل مِنَ الفهم العام والخاص أن لا يكون مخالفاً لما جاء في الكتاب والسنة ، بل يكون كل منهما موافقاً لما جاء في الكتاب والسنة ، فإذا خالف الفهمُ أحدَهما فهو مردود .

جاء في الحديث الذي رواه الشيخان ، والترمذي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين ، وقالوا : أيُّنا لا يظلم نفسه ـ أي : بارتكاب ذنب ـ .

فقال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم : « ليس ذلك ، إنما هو

الشرك ـ أي : المراد بالظلم هنا الشرك بالله تعالى خاصاً لا كل ذنب ـ أَلَمْ تسمعوا قول لقمان لابنه : ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ » .

وفي رواية : « ليس هو كما تظنون ، إنما هو كما قال لقمان لابنه » وفي رواية : « أَلَمْ تسمعوا قول العبد الصالح » .

فلما نزلت الآية المتقدمة فهموا منها عموم الظلم ، الشامل للشرك بالله تعالى ؛ وظلم الإنسان لنفسه بارتكاب الذنوب والمعاصي ، وكان فهمهم لذلك العموم موافقاً اللغة العربية ، باعتبار أنَّ الظلم جاء مُنكَّراً بعد ما تقدمه النفي ، والنكرة بعد النفي تعمُّ ـ كما هو معلوم في اللغة العربية .

ولكن هذا الفهم العامّ لَمْ يوافق السنة ، بل ردَّه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وَبَيَّن لهم أن المراد بقوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ هو ظلم خاص ، وهو الشرك بالله تعالى . أي : الشرك الأكبر .

فالمعاني والمفاهيم من القرآن الكريم يجب أن تُعرَض على السنة النبوية ، فما وافقت عليه السنة النبوية فهو مقبول ، وما كان غير ذلك فهو مردود .

ومن ذلك ما رواه أبو داود وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كَبُرَ ذلك على المسلمين .

فقال عمر : أنَا أفرِّج عنكم .

فانطلق فقال : يا نبي الله إنّه كبُر على أصحابك هذه الآية .

فقال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إن الله لم يَفرض الزكاة إلا لِيُطَيِّبَ ما بقي من أموالكم ، وإنما فَرض المواريث لتكون لِمَن

بعدكم »[1] فكبَّر عمر رضي الله عنه .

ثم قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ألا أخبرك بخير ما يَكنز المرء : المرأة الصالحة ، إذا نظر إليها ـ زوجته ـ سَرَّته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » .

وفي رواية للترمذي ، عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال ، وقد سأله بعض الصحابة : أيُّ المال خير اتخذناه .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة صالحة تُعِيْنُ المؤمن على إيمانه »[2] .

فالسنة هي المرجع في معاني القرآن الكريم ، وفيما يُفْهم منه ، كما قال سبحانه ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ .

* * *

---

(١) يعني : إنّ كنز المال مذموم إذا لم تُؤد زكاته ، فإذا أدّى زكاة ماله فهو ليس بكنز بل هو مال طيّب لصاحبه ، ولِوَرثته مِن بعده ، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : الكنز هو المال الذي لا تُؤدىٰ منه الزكاة . اهـ فهذا فيه الوعيد الشديد لمن لم يزك .

(٢) انظر (جامع الأصول) .

السنة النبوية الشريفة
تكفل الله بحفظها
كما تكفل بحفظ القرآن الكريم لأنها بيان له

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ ـ أي : جمع هذا القرآن في صدرك يا رسول الله ـ ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ الآية .

روى البيهقي بإسناده ، عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال : سمعت مَنْ أرضىٰ مِنْ أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة هي سنة رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ـ أي : أحاديثه الشريفة ، المشتملة على : أقواله وأفعاله ، وأخلاقه ، وأوامره ومناهيه ، وجميع ما هنالك ـ.

وروىٰ البيهقي بأسانيده ، عن الحسن وقتادة ويحيى بن أبي كثير أنهم قالوا : الحكمة في هذه الآية هي : السنة . اهـ أي : الأحاديث النبوية .

وروى البيهقي بإسناده ، والحاكم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ،

أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم خطب الناس في حجة الوداع فقال : « يا أيها الناس إني قَد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبداً : كتاب الله تعالى وسنتي » أي : أحاديثي .

وروىٰ البيهقي أيضاً بسنده ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنّ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم خطب في حجة الوداع فقال : « إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبداً ، أمرين اثنين : كتاب الله تعالى وسنة نبيكم .

أيها الناس اسمعوا ما أقول لكم تعيشوا به » أي : تحيوا به حياة هنيئة .

وروى البيهقي أيضاً بسنده ، عن ابن وهب قال : سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول : إلزم ما قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في حجة الوداع : « أَمران تركتهما فيكم لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنة نبيه » صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فالعصمة التي أقوى من كل عصمة ، هي : التمسك بالكتاب والسنة ، على الوجه الذي جَرى عليه السلف الصالح من هذه الأمة .

جعلنا الله تعالى منهم بفضله وبرحمته ، والله ذو الفضل العظيم . آمين .

وروى الإمام الدارمي في (سننه) بسنده عن حسان بن عطية قال : (كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بالسنة كما كان ينزل عليه بالقرآن) ورواه البيهقي بزيادة : (يعلمه إيّاها كما يعلمه القرآن) اهـ .

ومما تقدم يَعلم العاقل وجوب إلزامه واستسلامه لما جاء عنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

الواجب على المؤمن
أن يستسلم لما ثبت مجيئه عن
رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم
وافق هواه أو خالف هوى نفسه

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ أي : فإذا لم يستسلموا فهم منافقون غير مؤمنين .

وقد بين الله تعالى موقف المؤمنين الصادقين ، وموقف المنافقين الكاذبين ؛ إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، فقال الله تعالى في المنافقين : ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ - أي : مصدقين وقابلين - ﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ نفاق ﴿ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ - أي : يظلمهم - ﴿ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

ثم بَيَّن موقف المؤمنين الصادقين فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الآيات كما تقدم .

فكان سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالى يُقرر ذلك ويقول : إنّ المؤمن العاقل هو الذي يكون عقله وفهمه وهوى نفسه تابعاً لما جاء عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فيُحكِّم رسولَ الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم على عقله وفهمه ، فيتحاكم إليه ، ولا يجعل هوى نفسه حاكماً

على ما جاء به رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فما وافق هوى نفسه أخذ به ، وما خالف هوى نفسه تركه .

وقد جاء في الحديث كما تقدم قوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به ، ثم لا يزيغ عنه » أي : لا يميل ولا يُعرض عما جاء به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وإذا كانت ثقتك بعلم الطبيب تحملك على الاستسلام لأمره في استعمال الدواء ؛ وإن كان مُرّاً ؛ أو في استعماله صعوبة ، وتنتهي عن بعض المآكل التي نهاك عنها ؛ وأنت تهواها ، فتطيع أمر الطبيب وتنتهي عما نهاك عنه لثقتك بعلمه ، وتستسلم لما يقول ، دون اعتراض ولا انتقاد ، ولا استفسار عن تركيب الدواء ونحو ذلك ، مع أَنّ الطبيب قد يُخطئ في معالجته ، ووصفته ، فتستسلم له لثقتك بأن الطبيب هو عالم بالطب ، وأنه يضع الدواء حيث الداء ، فكيف لا تُسَلِّم وتستسلم لمن قال الله تعالى له : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ .

فأنزل الله الكتاب الجامع الذي فيه تبيان لكل شيء ، وأنزل عليه الحكمة الجامعة الساطعة التي تفوق كل حكمة ، والذي أفاض الله تعالى عليه ، وعلَّمه علوماً وعلوماً ، تفوق علم الأولين والآخرين ، فأقواله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأعماله ، وأحواله ، وأخلاقه ، وسَيْرُه وسِيْرته كلها صادرة عن حكمةٍ أنزلها الله تعالىٰ عليه ، وعن علم عَلّمه الله تعالى إياه ، فكيف لا تُسلِّم ولا تستسلم لما جاء به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فتمتثل أوامره ، وتنتهي عما نهى ، وَأنت تعلم أَنّ ما جاء به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فيه سعادة الدنيا والآخرة ، وأنَّه فيه العز والكرامة في الدنيا والآخرة ، وفلاح وصلاح ونجاح الدنيا والآخرة ، كما

قال سبحانه : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ ﴾ ـ أي : عظموه ـ ﴿ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك ، وبكرامته عليك صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فالواجب على المؤمن أن يعلم ويؤمن يَقيناً أَنّ ما جاء به رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فيه سعادة الدنيا والآخرة ، وصلاحهما ، مهما تعاقبت الأجيال ، وامتدت العصور ، لا يحتاج إلى تبديل ، ولا تعديل ، ولا تغيير .

روى الإمام البخاري ، عن جابر بن عبد الله قال : جاءت ملائكة الله تعالى إلى نبي الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وهو نائم .

فقال بعضهم : إنه نائم .

وقال بعضهم : إنّ العين نائمة والقلب يقظان .

فقالوا : إنّ لصاحبكم هذا مثلاً ، فاضربوه له مثلاً .

فقال بعضهم : إنَّه نائم .

وقال بعضهم : إنَّ العين نائمة والقلب يقظان .

فقالوا : مثله : كمثل رجل بنىٰ داراً ، وجعل فيها مأدُبة ، وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار ، وأكل مِنَ المأدُبة ، وَمَن لم يُجب الداعي لَم يدخل الدار ، ولم يأكل من المأدبة .

فقالوا : أوِّلوها لَهُ يَفْقهها .

فقال بعضهم : إنه نائم .

وقال بعضهم : إنّ العين نائمة والقلب يقظان .

فقالوا : فالدار الجنة ، والداعي محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله ، وَمَن عصى محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقد عصى الله ، وَمُحمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فَرْقٌ بين الناس» .

أي : ميَّز الله تعالى به بين أهل الجنة وأهل النار ، وبين مَنْ أطاع الله تعالى وبين من عصاه .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : وأبان الله تعالى ـ أي : بيَّن ـ أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هُو يهدي إلى صراط مستقيم فقال تعالى : ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ أي : القرآن ﴿نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ .

والمعنى : إنَّ السير على الصراط المستقيم الموصل إلى الله تعالى لا يتحقق إلا باتباع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، والسير وراءه ، فإنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو الهادي الدال على الصراط المستقيم ، والمبين له ، وما يتطلبه السير على الصراط المستقيم ، وذلك باتباعه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم تسليماً كثيراً .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : وقد فرض الله ذلك ـ أي : اتباعه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، والسير على هديه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ فرض ذلك على من عاين رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وَمَنْ بعده إلى يوم القيامة ، كان ذلك فرضاً واحداً على كل واحد طاعته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم . اهـ

وقال الله تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ .

أما الردُّ إلى الله تعالى فهو الردُّ إلى كتابه سبحانه ، **وأما الردُّ إلى الرسول صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم** فهو الرد إليه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في الحياة الدنيا ، والرد إلى سنته بعد وفاته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ؛ إلى أحاديثه وبيانه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فلا يجوز الإعراض عن السنة وتركها بدعوى الاكتفاء بالكتاب ، فإنّ الكتاب ـ أي : كتاب الله تعالى ـ هو يأمر باتباع السنة ، والعمل بها كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الآية وأمثالها كما تقدم .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ أي : ينقادوا لأمرك ، ويذعنوا لحكمك ، بظاهرهم وباطنهم .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : نزلت هذه الآية في رجل خاصم الزبير في أرض ، فقضى النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للزبير .

قال الشافعي : وهذا القضاء سنة من رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لا حكم منصوص في القرآن[1] . اهـ

أي : فهذا يدل على وجوب العمل بسنته الشاملة لأقواله وأحكامه وأفعاله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

قال الإمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنه : لو أَنَّ قوماً عبدوا الله تعالى ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وصاموا رمضان وحجوا البيت ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ألا صَنَع خلافَ ما صنع ، أو وجدوا في أنفسهم حرجاً ؛ لكانوا مشركين ـ أي : كافرين ـ

---

(١) انظر رسالة (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة) للحافظ السيوطي رحمه الله تعالى .

ثم تلا هذه الآية الكريمة : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ الآية .

وقد صنف الشيخ أبو الفتح نَصْرُ بن إبراهيم المقدسي الشافعي ، الفقيه الزاهد ، كتاباً سماه (الحجة على تاركي طريق المَحجَّة) ـ أي : السنة ـ وذكر فيه أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة .

وجاء فيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

قال الإمام النووي في (الأربعين) : حديث حسن صحيح رويناه في كتاب (الحجة) بإسنادٍ صحيح .

وروى الشيخ نصر المقدسي في كتاب (الحجة) بسنده ، عن كثير بن عبد الله ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنّ الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبىٰ للغرباء » .

قيل : يا رسول الله ومَنِ الغرباء .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « الذين يُحْيُون سنتي من بعدي ، ويعلمونها عباد الله » .

وأخرج عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، أنه قيل له : هل لله تعالى أبدال في الأرض ؟

فقال : نعم .

قيل له : مَنْ هم .

قال : إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال فلا أعرف لله تعالى أبدالاً . اهـ .

وفي كتاب (السنة) للالكائي قال الإمام أحمد بن حنبل : السنة عندنا آثار رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، والسنة تفسير القرآن ، وهي دلائل القرآن اهـ أي : يدل عليها القرآن الكريم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الآية وغيرها من الآيات القرآنية الكريمة .

وقد أنشد بعض المحدثين الأبيات التالية :

دِيْنُ النبي مُحمد ﷺ أخبار[1] نِعم المَحجَّة للفتىٰ آثار
لاَ تَعْدِلَنَّ عن الحديث وأهله فالرأي ليل والحديث نهار
ولربَّما غلط الفتى إثر الهدى فالشمس بازغة لها أنوار[2]

* * *

(١) أي : أحاديث تنقل عنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فيها بيان أمور الدين .

(٢) يعني أن الإنسان قد لا يهتدي إلى بعض الأمور وتخفى عليه ، فيقال له : ارجع إلى سنته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وأحاديثه ، فإنها الشمس البازغة ، وامش على نورها .

تحذيره صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من قوم يأتون من بعده متكبِّرين يَدَّعُوْنَ الفهم واستنباط أحكام الحلال والحرام من كتاب الله تعالى ويتركون العمل بماء جاء عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في أحاديثه

جاء في الحديث ، عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ألاَ عسى رجل يبلغه الحديث عني ، وهو متكئ على أريكته[1] فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله تعالى ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما وجدنا فيه حراماً حرمناه[2] ، وإنَّ ما حرم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كما حرَّم الله » رواه الترمذي وأبو داود[3] .

ففي هذا الحديث الشريف إنذار شديد ، وتحذير وتهديد ، لكل من يُعرض عن أحاديث رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ويتركها ، ولا يعمل بها ، ويدَّعي أنه يأخذ بكتاب الله تعالى ، وهو في الواقع غير

---

(١) الأريكة هي : ما يتكأ عليه .

(٢) أي : يُعرض عن الأحاديث الواردة عن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ويتركها ، ولا يعمل بها ، مع أنّ أحاديثه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فيها بيان ما جاء في كتاب الله تعالى من الحرام والحلال ، كما قال سبحانه : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية .

(٣) كما في (تيسير الوصول) .

آخذ بكتاب الله تعالى ، فإن الله تعالى قال في كتابه العزيز : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقد بين رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم الكتاب الذي أنزله الله تعالى ، على الوجه الذي بينه الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ أي : نبينه لك يا رسول الله بما نوحي إليك من الحكمة كما قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهي أحاديثه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، المشتملة على الأعمال والأقوال والأخلاق ، وفيها بيان العقائد الإيمانية ، والأحكام ، والحلال والحرام ، كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن[1] ، وبينهما أمور مشتبهات[2] لا يعلمهن كثير من الناس » .

ثم بَيَّنَ صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما يجب على المؤمن أن يكون موقفه مع المشتبهات ، وذلك بأن يتباعد عنها ويتجنبها ، ويتقي الوقوع فيها فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » أي : طلب البراءة والسلامة لدينه وعرضه « ومن وقع في

---

(١) قال هذا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بعدما بين ذلك كله مفصلاً .

(٢) أي : بعض أمور مشتبهة .

الشبهات وقع في الحرم ، كالراعي يرعىٰ حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه .

أَلا وإنّ لكل ملك حمى ، أَلاَ وإنّ حمى الله محارمه .

أَلاَ وإنَّ في الجسد مضغة : إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، أَلاَ وَهي القلب » .

فهذا الحديث الشريف يدل على أنَّ الحلال بَيّن ، والحرام بين . أي : كل واحد منهما جليٌّ واضح ، بَيَّنَهُمَا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، الذي أمره الله تعالى أن يبين للناس ما نزل إليهم ، قال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية ، كما أن هذا الحديث يدل على أَنَّ ما أحلَّه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وحرَّمه هما قطعيان محكمان ، لا سبيل إلى تبديل حكمهما ، ولا إلى تأويلٍ ولا إلى تعديلٍ مهما امتدَّت العصور وتعاقبت الأجيال .

وقوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس » أي : أمور تحدث لها شبه بالحلال مِنْ وجه ولها شبه بالحرام من وجه آخر .

« فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » فَبيَّن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أَنّ الواجب على المؤمن هو اتقاء الشبهات ، والبعد عنها ، وفي ذلك براءة لدينه من الخلل والنقص ، وبراءة عرضه من الطعن والذم والتكلم فيه .

وقوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » .

هذا مَثَلٌ ضربه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لمن وقع في

الشبهات ، وأنه سيقع في الحرام المحض .

فجعل رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مَثَل المحرمات كالحمىٰ الذي يحميه الملوك ، ويمنعون غيرهم من قربانه ، فالواجب على الراعي أن يُباعد غنمه أو إبله عن الحمىٰ ، فإنه يوشك أن تدخله الغنم أو الإبل ، وتقع فيه لا محالة .

ثم قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه » .

والمعنى : إنّ الله تعالى حَمىٰ هٰذه المحرمات ومنع عباده مِن قربانها ، والوقوع فيها ، وجعل لها سبحانه وتعالى حدوداً فقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ .

وفي هذا بيان أنه سبحانه حَدَّ لعباده ما حرَّم عليهم ، فقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ وحدَّ لهم ما أحلَّ لهم ، فلا يعتدوا الحلال إلى فعل الحرام فقال سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ أي لا تُجاوِزُوْها إلى فعل الحرام ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

قوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أَلاَ وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ أَلا وهي القلب » .

في هذا بيان وإعلان فيه إعلام ، أن صلاح العبد بجوارحه وجوانحه ، واجتنابه للمحرمات ، واتقائه للشبهات ، هو تابع لصلاح القلب بصدق الإيمان ، ومحبة الله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ومحبة ما يحبه الله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وخشيته من الله تعالى ، وخوفه من الوقوع في المحرمات ، والوقوع في الشبهات ، فإذا

صلح القلب بذلك صلحت أعمال الإنسان وأقواله ، فالصالحات العملية والقولية ، والأدبية الخلقية ؛ هي تابعة لصلاح القلب بالإيمان الصادق .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ .

فذكر الله تعالى الإيمان أوّلاً ثم ذكر الأعمال الصالحة ثانياً ، وقد جاء هذا في مواضع متعددة في القرآن الكريم .

قال الله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ اللهم اجعلنا منهم .

وأما إذا كان القلب فاسداً بمحبته للأهواء الضالة ، واتباعه للآراء الزائفة ، والشهوات القاسدة ؛ فإنّ أعمال الإنسان تكون فاسدة ، ويميل إلى الوقوع في المعاصي والمحرمات ، والشبهات والشهوات .

فالقلب هو مَلِكُ الأعضاء ، وبقية الأعضاء جنود له طائعون ، ينفذون أوامره ولا يخالفونه .

فإذا صلح القلب بالإيمان بالله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ومحبة الله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كما تقدم ؛ صار القلب سليماً من الميل إلى البليات والآفات المحرمة ، والمكروهات والشبهات الضالة ، والشهوات المحرمة .

قال الله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وهذا هو قلب المؤمن الصادق ، المحب لله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وفي الخشية من الله تعالى والخوف من الوقوع فيما حرَّم الله تعالى .

روى النسائي ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُعَلمنا أنْ نقول في الصلاة[1] :

« اللهم إني أسألك الثبات في الأمر[2] ، والعزيمة على الرُشد[3] وأسألك شكر نعمتك ، وحسن عبادتك ، وأسألك لسانا صادقاً ، وقلباً سليماً ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأستغفرك مما تعلم »[4] .

وفي قوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أَلاَ وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ أَلاَ وهي القلب » في هذا تنبيه ودليل على شرف مكانة القلب ، وعُلُوِّ فضله ، ورفعة منزلته ؛ إذا صلح بالإيمان ، وسلم من آفات الأهواء الشهوانية ، والآراء الشيطانية ، كما سيتضح فيما يأتي إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) أي : آخرها .

(٢) أي : الدين فإنه رأس الأمر كله .

(٣) أي : العزم القلبي على فعل ما فيه الرشاد .

(٤) كذا في (تيسير الوصول) .

شرف قلب المؤمن وفضائله وخصائصه
ووجوب الالتجاء إلى الله تعالى
ودعائه بالحفظ من زيغ القلب ونحوه

أولاً : قلب المؤمن هو بيت مَعرفة الله تعالى ، ونور الإيمان بالله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۚ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

قال أبي بن كعب وغيره رضي الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ قال : مَثَلُ نور الله تعالى في قلب عَبده المسلم . اهـ

يعني : أن هذا هو نور الإيمان الذي أودعه الله تعالى في قلب عبده المؤمن ، فعرف ربه سبحانه ، وأحبه ، فضرب الله عز وجل لهذا النور ، ومحله ، وحامله ومادته مثلاً بالمشكاة ، وهي الكوَّة في الحائط ـ غير النافذة ـ فهي مِثْل الصدر ، وفي تلك المشكاة زُجاجة صافية كل الصفاء ، تُشبه الكوكب الدريَّ في بياضه وصفائه ووضاءته ، وهذه الزجاجة هي مثل للقلب ، وفي هذه الزجاجة الصافية مِصباح يُضيءُ كالصباح ، وهو النور الإيماني الذي أودعه الله تعالى في قلب عبده المؤمن ، ومادة المصباح الذي في الزجاجة هو زيت قَد عُصر من زيتونة هي في أعدل الأماكن تُصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها قوي من أصفى الزيت ، وأبعده

من الكدر ، حتى إنّه ليكاد من صفائه ونقاوته يُضيء ولو لم تمسسه نار .

فهذه مادة المصباح الذي في الزجاجة .

وأما مادة المصباح المنير الذي في قلب العبد المؤمن ، فهي من شجرة الوحي الإلهي ، النازل على إمام الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم .

وبعدما ذكر الله تعالى في أول الآية الكريمة المتقدمة ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ وهو النور الإلهي ، أظهر الله به الموجودات بعدما كانت في ظلمة العدم ، ذكر بعد ذلك النور الرباني الذي نوَّر به قلوب عباده المؤمنين ، فآمنوا به سبحانه ، وعرفوه وأحبوه ، وهذا النور الإيماني كُلَّما قوي وزاد تظهر آثاره على وجوههم ، وجوارحهم ، وأبدانهم ، وكلامهم ، يراه من هو مثلهم ، فإذا كان يوم القيامة ظهر عليهم ذلك النور جَليّا واضحاً ، لكل من رآهم ، وصار هذا النور يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم ، كما قال الله تعالى مخبراً ومبشراً لعباده المؤمنين : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

ثم إنّ الله تعالى بعدما ذكر بيت نور الإيمان به ، ومعرفته ، وهو قلب المؤمن كما تقدم ، ذكر سبحانه بيوت العبادات والصلوات له[1] وهي المساجد ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ

---

(١) أي : يصلى له ، فالمراد بالتسبيح هنا الصلاة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره ـ وعليه الجمهور .

ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ .

فالمراد بقوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ هي بيوت الله تعالى المساجد ، ومعنى ﴿ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ المراد بالأذان : الأذان التشريعي . أي : شرع الله تعالى أن ترفع بيوته المساجد بأن تعظم وتكرَّم ، ويُؤتىٰ عند دخولها بتحية المسجد ، ويلازم الأدب والوقار والسكينة ، ولا يجوز فيها العبث ولا اللهو ولا اللغو ، ولا يباع فيها ولا يُشرىٰ ، فهي بيوت الله تعالى ، يُراقب من دخلها عظمة ربِّ البيت سبحانه وتعالى وجلَّ وعلا ، ويلازم الهيبة منه ، فالواجب تعظيمها ، ورفعها عن مستوى غيرها من بيوت الناس ، بملازمة الأدب فيها ، والسكينة والوقار ، ونظافتها ، وإبعادها عن الأوساخ والروائح الكريهة .

جاء في الحديث ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « عُرِضتْ عليَّ أجور أمتي ؛ حتى القذاة[1] يُخرجها الرجل من المسجد ، وعُرضت عليَّ ذنوب أمتي ، فلم أَرَ ذنباً أعظم مِنْ سورة من القرآن أوْ آية أُوْتِيَها الرجل ـ أي : فحفظها ـ ثم نسيها »[2] رواه أبو داود والترمذي .

وروى الشيخان ، والترمذي ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله تعالى ـ أي : مخلصاً لا رياء ولا سمعة ـ بنى الله تعالى له بيتاً

---

(١) القذاة : الوسخ ، فإخراج الوسخ ولو شيئاً قليلاً مِن المسجد فيه أجر عظيم عند الله تعالى .

(٢) فمن أكرمه الله تعالى بحفظ سورة أو آية من القرآن ولم يتعاهدها حتى نسيها فهذا ذنب عظيم، أما من نسيها لمرض اعتراه فأنساه، أو كبرت سنه فاعتراه النسيان فهو معذور.

في الجنة » وفي رواية : « بنى الله تعالى له مثله في الجنة » كما في (التيسير) .

وروى النسائي ، عن عَمْرو بن عبسة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « من بنى مسجداً ليُذكر الله فيه : بنى الله له بيتاً في الجنة » .

وفي هذا بيان فضل بناء المساجد ابتغاء وجه الله تعالى .

وفي قوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة » في ذلك عدة بشائر متعددة ، أذكر بعضاً منها :

أَوَّلاً : إنّ في بناء الله تعالى بيتاً في الجنة للذي بنىٰ له مسجداً في الأرض ؛ في ذلك تكريم من الله تعالى ، وفضل منه كبير ، حيث بنى له بيتاً في الجنة التي هي في جوار الكريم جل وعلا ، وما أكرمه وما أشرفه من جوار ، وقد أخبر سبحانه عن دعاء امرأة فرعون المؤمنة ، قال سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ الآية فطلبت الجوار قبل طلب الدار .

ثانياً : في بناء الله تعالى بيتاً لعبده في الجنة ؛ في ذلك بشارة لصاحب البيت بأنه يُختم له بحسن العاقبة ، ويموت على الإيمان ، ويدخل ذلك البيت الذي بناه الله تعالى له في الجنة ، فلا يصير ذلك البيت لغيره ، وإنَّ البيت الذي يبنيه الله تعالى لعبده لا يَخرب ولا ينهدم ، بل هو دائماً في تحسين وتكريم .

ثالثاً : إنّ العبد المؤمن الذي بنىٰ الله تعالى له بيتاً في الجنة ، لَيَرى بيته في الجنة حين يصير في القبر ، فإنه يرى مقعده في الجنة كما جاء في الحديث .

روى الإمام أحمد ، والطبراني عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « من بنى مسجداً يُصلَّىٰ فيه : بنى الله عز وجل له في الجنة بيتاً أفضل منه » .

وعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « من بنى مسجداً لا يُريد به رياءً ولا سُمعة : بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « مَنْ بَنىٰ بيتاً يُعبَد الله تعالى فيه ـ من مال حلال ـ بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة »[2] .

فلا بُد من الصدق والإخلاص لله تعالى في المسجد ، وَأن يكون مِنْ مال حلال ، لينال ذلك الفضل الكبير ، والأجر العظيم .

ومن جملة الذين يجرى لهم الثواب والأجر بعد موتهم ، ما جاء في الحديث :

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : **عِلْماً** علَّمه ونشره ، أو **ولداً** صالحاً تركه ، أو **مصحفاً** ورَّثه ، أو **مسجداً** بناه ، أو **بيتاً** لابن السبيل بناه ، أو **نهراً** أجراه ، أو **صدقة** أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه ـ أي : ثوابها ـ مِن بعد موته »[3] .

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط كما في (الترغيب) .

(٢) رواه الطبراني في (الأوسط) والبزار كما في (الترغيب) .

(٣) رواه ابن ماجه واللفظ له ، وابن خزيمة في (صحيحه) والبيهقي ، وإسناد ابن ماجه حسن كما في (الترغيب) و(الجامع الصغير) .

قلوب المؤمنين الصادقين
فيها سرج مزهرة ومصابيح نيِّرة

روى الإمام أحمد بإسناد جيد ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم : « القلوب أربعة :

قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، **وقلب** أغلف مربوط على غلافه ، **وقلب** منكوس ، **وقلب** مُصْفَح .

فأما القلب الأجرد[1] فقلب المؤمن ، سراجه فيه نوره ـ أي : نور الإيمان ـ **وأما القلب الأغلف** فقلب الكافر[2] ، **وأما القلب المنكوس**[3] فقلب المنافق عَرَف ثم أنكر ، **وأما القلب المُصْفَح**[4] فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومَثَل الإيمان فيه كمثل البقلة يُمدُّها الماء الطيب ، وأما النفاق فيه كمثل القَرْحة يُمدُّها الدم والقيح ، فأيُّ المادتين غلبت على الأخرى علت عليه » .

وعن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، أَنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى المسجد ، فوجد معاذاً عند قبر رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله

---

(١) أي : القلب الذي ليس فيه غِلّ ولا غش ، فهو على أصل الفطرة ، فنور الإيمان فيه يزهر ، كذا في (النهاية) لابن الأثير اهـ أي : مجرد من الغل والغش والحقد .

(٢) قال في (النهاية) : القلب الأغلف هو القلب الذي عليه غِشاء عن سماع الحق وقبوله .

(٣) القلب المنكوس : هو المقلوب ، مثل الإناء المقلوب لا يستقر فيه شيء من الإيمان ولايثبت .

(٤) المُصْفَح : هو الذي له وجهان ، فالقلب المصفح فيه نفاق وإيمان ، فصاحبه له وجهان : يلقىٰ أهل الكفر بوجه ، ويلقى أهل الإيمان بوجه ، وصفح كل شيء هو وجهه وناحيته اهـ (نهاية) .

وسلَّم يبكي ، فقال له : ما يبكيك ؟ .

فقال معاذ رضي الله عنه : حديث سمعته من رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « اليسير من الرياء شرك ، وَمَنْ عادىٰ أولياء الله فقد بارز الله تعالى بالمحاربة ، إنَّ الله يُحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إنْ غابوا لم يُفتقدوا[1] ، وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ـ وفي رواية : « الدجىٰ » ـ يخرجون من كل غبراء مظلمة »[2] .

قال الحافظ المنذري رحمه الله تعالى : رواه ابن ماجه ، والحاكم واللفظ له وقال : صحيح ولا علَّة له . اهـ .

قلوب المؤمنين ألواح
كَتَبَ الله تعالى فيها الإيمان

قال الله تعالى : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ[3] اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ ﴾ أي : الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويبغضون من حَادَّ الله ورسوله وهم الكفار ﴿ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك الأكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فما أشرف المؤمنين الصادقين ، وما أكرمهم عند الله تعالى ، وذلك

---

(١) أي : لم يُسأل عنهم .

(٢) أي : ينجيهم الله تعالى من الفتن والظلمات والضلالات .

(٣) وهم الكفار ، فإنهم وقفوا في حَدٍّ أي : جانب الكفر والضلال ، مخالفين لجانب الإيمان بالله ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

أَنَّ الله تعالى كتب في لوح قلوبهم الإيمان ، وأيَّدهم بروح منه[1] ، وَيُدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار في جواره سبحانه وتعالى ، خالدين فيها ، ورضي الله عنهم ورضوا عنه ، وَأكرمهم فجعلهم حزبه ، فهم ﴿حِزْبُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون ، الذين ينالون ويظفرون بالبغية والمطلوب ، ورفعة الدرجات والمراتب ، والمقامات عند رب العالمين جل وعلا .

قلوب المؤمنين هي منابت شجرة الإيمان التي تثمر الكلم الطيب والعمل الصالح

قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

فالكلمة الطيبة هي لا إلَه إلا الله ، وهي تستلزم : محمد رسول الله ، فإنها ملازمة للا إلَه إلا الله أبداً ، كما بَيَّنْتُ الأدلة على ذلك في كتاب (صعود الأعمال) فارجع إليه .

وهذه الكلمة الطيبة هي شبيهة بالشجرة الطيبة ، وهي النخلة ، فكما أن النخلة تؤتي أكلها ـ أي : ثمرها ـ كل حين بإذن ربها ، وما يَنقطع خَيرها ونفعها للعباد ، فهم يأكلون منها بُسراً ، أو رطباً ، أو تمراً ، وهذا الثمر يبقى طول السنة ما ينقطع ولا يفسد ، فخيرها مستمرٌّ باقٍ .

كذلك شجرة الإيمان وهي لا إلَه إلا الله فإن أصلها ثابت في القلب ، وفرعها وثمراتها الكلم الطيب ، والأعمال الصالحة ، الصاعدة والمرفوعة

---

(١) أي: نورٌ يقذفه في قلوبهم فتقوى قلوبهم، وتطمئن وتفرح وتستبشر، وقال بعضهم: هو الروح القرآني ، تحيا به القلوب وتقوى ـ وكلا القولين متلازمان وصحيحان .

إلى رب العزة ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ .

.وهذه الكلمة وهي لا إلَه إلا الله محمد رسول الله هي تُثمر أقوالاً طيبة ، وأعمالاً صالحة ، دائمة مستمرة ، في الليل والنهار ، صباحاً ومساءً .

فالكلم الطيب يشمل التسبيح والتحميد ، والتكبير والتهليل ، والدعاء ، والثناء على الله تعالى ، والصلاة على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وجميع ما هنالك .

والأعمال الصالحة تشمل الصلاة والزكاة ، والصيام والحج ، وصلة الرحم ، وسائر الواجبات والنوافل الدينية العملية .

روىٰ الإمام البخاري ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (كنا عند رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال : « أخبروني عن شجرة تُشبه ـ أو كالرجل ـ المسلم ، لا يتحاتُّ ورقها صيفاً ولا شتاءً ، وهي تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها » ؟ .

قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهتُ أن أتكلم ، فَلَمَّا لَمْ يقولوا شيئاً .

قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « هي النخلة » .

فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة .

فقال عمر : ما منعك أن تتكلم ؟

قلت : لم أركم تتكلمون ، فكرهتُ أن أتكلم أو أقول شيئاً .

فقال عمر : لأن تكون قلتها أحبُّ إليَّ من كذا أو كذا) .

وفي هذا المثل الذي ضربه الله تعالى مثلاً لشجرة الإيمان في القلب ، في ذلك تنبيه إلى أمور هامة يجب على المؤمن أن يهتمّ بها ولا يهملها :

الأمر الأول : هو أن الشجرة لا تبقى حيَّة تعطي ثمرها إلا بمادة سقيها ، فإذا قُطع عنها السقي أوْشك أن تَجفَّ ، ويعتريها اليُبس ، وكذلك شجرة الإيمان في القلب إن لَمْ يتعهدها صاحبها المؤمن : بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، والتهليل وتلاوة القرآن الكريم ، وسائر أنواع ذكر الله تعالى من التسبيح والتحميد والتكبير والدعاء ، فإنّ شجرة الإيمان تضعف ويوشك أن تهلك .

روى الإمام أحمد ، والحاكم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « جدِّدوا إيمانكم ، أكثروا مِنْ قول لا إلَه إلاّ الله » .

وعن ابن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إن الإيمان لَيَخلُق ـ أي : يضعف ـ في جوف أحدكم كما يخلُق الثوب ، فأسألوا الله تعالى أن يُجدِّد الإيمان في قلوبكم »[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

فتلاوة القرآن الكريم وسماعه تُقوي الإيمان في قلب المؤمن، وتزيده نوراً على نور، وكذلك حديث رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ والحكمة هي السنة النبوية ، المشتملة على أحاديثه وأعماله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

---

(١) رواه الطبراني والحاكم كما في (الفتح الكبير) .

وكذلك الصلاة على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فإنها تزيد الإيمان ، وتُنوِّر القلب ، وتجلو عنه ظلمات الذنوب ، والهموم والأحزان والكروب .

جاء في الحديث ، عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال : أصبح رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم طيب النفس ، يُرى في وجهه البشر ـ أي : السرور ـ قالوا : يا رسول الله ، أصبحت اليوم طيب النفس ، يُرى في وجهك البشر ـ أي : أكثر من بقية الأيام ـ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أجل ، أتاني آت عن ربي عز وجل فقال : مَنْ صَلّىٰ عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات ، ومحا عنه عشر سيئات ، ورفع له عشر درجات ، وردَّ عليه مثلها » أي : يقول له : وأنت صلى الله عليك .

قال الحافظ المنذري : رواه أحمد ، والنسائي .

قال : وفي رواية لأحمد : أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جاء ذات يوم والسرور يُرى في وجهه الشريف .

فقالوا : يا رسول الله إنا نرى السرور في وجهك .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنه أتاني الملك[1] فقال : يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول : إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليتُ عليه عشراً ، ولا يُسلم عليك أحد مِنْ أمتك إلا سَلَّمت عليه عشراً .

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بلى » أي : رضيتها .

---

(١) أي : جبريل عليه السلام كما في رواية الطبراني .

وروى الطبراني ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أكثروا الصلاة عليَّ يوم الجمعة ، فإنه أتاني جبريل آنفاً ـ الآن ـ عن ربه عز وجل فقال : ما على الأرضِ منْ مسلم يصلي عليك مرة واحدة : إلاّ صليت أنا وملائكتي عليه عشراً » .

وعن الحسن بن أمير المؤمنين علي رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « حيثما كنتم فصلُّوا عليَّ فإنّ صَلاتكم تبلغني » أي : فوراً .

قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الكبير) بإسناد حسن . اهـ

وقد ذكرت في كتاب (الصلاة على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم) كلاماً مفصلاً حول فضائل الصلاة على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فارجع إليه تجد فيه ما يُسعدكَ في الدنيا والآخرة ، ويملأ قلبك فرحاً وسروراً .

الأمر الثاني مما يجب على المؤمن أن يهتمَّ به حفظاً لإيمانه :

لما ضرب الله تعالى مثل الكلمة الطيبة في القلب ، كمثل الشجرة الطيبة في الأرض ، دلَّ ذلك على وُجوب المحافظة على شجرة الإيمان في القلب ، وإبعاد كل شيء يُضر بشجرة الإيمان وربما يفسدها ويهلكها .

فإن الشجرة في الأرض يتعهدها صاحبها بإبعاد الشوك عنها ، وإبعاد الحشائش وكل ما يؤذي الشجرة وَيُضعفها كما هو معلوم ، فإذا كان كذلك ، فالواجب على المؤمن المحافظة على شجرة الإيمان في قلبه ، والبعد كل البعد عما يُضرها ويُضعفها وربما أهلكها .

وأهمُّ ذلك البعد عن المحرمات ، والشهوات المنهي عنها ، والبعد عن الشبهات الضالة ، والأهواء الفاسدة الضارَّة .

أما البعد عن المحرمات وما نهى الله تعالى عنه فواجب على كل مؤمن ومؤمنة حفظاً لدينه وإيمانه ، فإن الذنوب والمعاصي تُضعف الإيمان .

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إنَّ الله عز وجل يغار ، وغيرة الله تعالى أن يأتي المؤمن ما حرَّم الله عليه » .

فالله يغار على المؤمن أن يأتي ما حرَّم الله تعالى ، فإذا فعل المؤمن ذلك فقد تعرض لغضب الله تعالى وسخطه .

وروى البزار ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « أنا آخذ بُحجزكم ـ أي : عن الوقوع في النار ـ أقول : إياكم وجهنم ، إياكم والحدود ـ أي : الوقوع في المحرمات ـ إياكم وجهنم ، إياكم والحدود ، إياكم وجهنم ، إياكم والحدود ـ ثلاث مرات ـ فإذا أنا متُّ تركتكم وأنا فرطكم ـ أي : سابقكم ومنتظركم ـ على الحوض ، فمن ورد ـ أي : ورد الحوض ـ فقد أفلح » ولا يَرِدُ إلا السّالم من المحرمات ، فهو المفلح ، والتائب من المعاصي ، وذلك أنّ المعاصي والمحرمات لها آثار ظلمانية ، تؤثر على القلوب ، فإذا استحكمت وكثرت تُظلم القلب ، وتغشِّيْه ، وتغطِّيه بظلماتها ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صُقِل قلبه ، وإن زاد ـ أي : زاد في الذنب ـ زادت » ـ أي : زادت النكتة السوداء ـ .

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فذلك قول الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ

عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ » رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ، ورواه النسائي ولفظه : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَتْ في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع ـ أي : أقلع عن الذنب ـ واستغفر وتاب : صُقل قلبه ، فإن عاد زيد فيها ، حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذي قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ » أي : غطاها وأظلمها وغشاها السواد .

وروى الإمام أحمد ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر : صُقل قلبه ، فإن زاد زادت ، حتى تعلو قلبه ، وذاك الران الذي ذكر الله تعالى في القرآن ﴿ كَلَّا بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ » .

قال الحسن البصري وغيره : وهو الذنب علىٰ الذنب ، حتى يعمىٰ القلب فيموت[1] ـ أي : فيموت القلب بعد أن كان حياً بالإيمان ـ . اهـ

ولذلك حذّر الله تعالى عباده من الإصرار على الذنوب والفواحش قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي : يعلمون أنهم إذا تابوا تاب الله تعالى عليهم ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۗ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ .

كما حذَّر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم من الإصرار على المعصية والذنب ، لما في ذلك مِن الإضرار بدينه ، وزوال إيمانه من قلبه ، فقد يحمله على الاستحلال فيكفر .

---

(١) كذا في تفسير الحافظ ابن كثير وغيره .

روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم أنه قال ـ وهو على المنبر ـ : « إرحموا تُرحموا ، واغفروا يُغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمُصرِّين ، الذين يصرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون » أي : يعلمون أنهم إذا تابوا تاب الله تعالى عليهم كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

ويرحم الله تعالى القائل :

يا من غدا ثم اعتدى ثم اقترف ثم ارعوى ثم اهتدى ثم اعترف
أبشر بقول الله في آياته إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف

إذا علمت مما تقدم في الآيات الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ؛ ضَرَرَ المعاصي والوقوع في المحرمات ، وأنها تُضعف الإيمان في القلب ، وأن الإصرار على الذنوب قد يُذهب نور الإيمان كله ، وتتغشاه الظلمات ، وتملأه وتحجبه حتى يقع في الكفر الصريح .

إذا علمت ذلك فالواجب عليك أيها المسلم والمسلمة : التباعد كل البعد عن المعاصي ، وسائر المحرمات التي جاء تحريمها في الشريعة المحمدية صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، وأن تتوقاها كلها ، فإن وقعت في شيء من ذلك فأسرع إلى التوبة والاستغفار .

فإن الإصرار على الكبائر بريد الكفر . أي : قد يصل المصر على الكبائر إلى الكفر وذلك بأن يستحلها أو يستبيحها ، كما أنّ الإصرار على فِعل الصغائر يُلحقها بالكبائر .

جاء في الحديث ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه ، أن النبي

صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إيّاكم ومُحقَّرات الذنوب ، فإنما مَثَل محقَّرات الذنوب : كمثل قوم نزلوا بطن وادٍ ، فجاء ذا بعُود ، وجاء ذا بعود ـ من الحطب ـ حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم .

وإن محقّرات الذنوب متى يُؤخذ بها صاحبها تهلكه »[1] .

قال العلامة المناوي : محقَّرات الذنوب هي : صغارها ، لأن صغارها هي أسباب تؤدّي إلى ارتكاب كبارها ، ثم قال : وقال الإمام الغزالي : تصير الصغيرة كبيرة بأسباب منها : الاستصغار والإصرار . اهـ

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إياكم ومُحقَّرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يُهلكنه ، كرجل كان في أرض فلاة ، فحضر صنيعَ القوم ، فجعل الرجل يجيء بالعود ـ أي : عود الحطب ـ والرجل يجيء بالعُود ، حتى جمعوا مِنْ ذلك سَوَاداً وأجَّجُوا ناراً فأنضجوا ما فيها »[2] .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : وتواتر الصغائر ـ أي : تتابعها والإصرار عليها ـ عظيم التأثير في سواد القلب ، وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر ، فإنه يُحدث ـ أي : إذا طال ـ فيه حفرة لا محالة ـ إذا استمر ـ مع لين الماء وصلابة الحجر . اهـ .

فاعتبر أيها العاقل اللبيب ، فإياك والإصرار على الذنوب أو استصغارها .

---

(١) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الإمام أحمد ، والطبراني أي : في الثلاثة ، والبيهقي ، والضياء المقدسي ، وقال العلامة الهيثمي : ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٢) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الإمام أحمد ، والطبراني رامزاً لحسنه .

الأمر الثالث : الذي يجب على المؤمن أن يتباعد عنه حفظاً لإيمانه ، وسلامة دينه هو : عدم متابعة الأهواء الفاسدة ، والأراء الضالة ، المخالفة لما جاء به رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم :

جاء في الحديث ، عن أبي برزة رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إنما أخشىٰ عليكم شهوات الغيّ في بطونكم وفروجكم ، ومُضلاّت الهوى »[1] .

وعن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال : « **ثَلاث كفَّارات** ـ أي : تكفر الذنوب ـ **وثلاث درجَات** ـ أي : ترفع درجات المؤمن عند الله تعالى ـ **وثلاث منجيات** ـ أي : تنجيه من عذاب الله تعالى ـ **وثلاث مُهلكات** » أي : يهلك فاعلها بعذاب الله تعالى .

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « **فأما الكفارات** : فإسباغ الوضوء في السَّبَراتِ[2] ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ـ أي : جماعات الصلوات ـ .

وأما الدرجات : فإطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام .

وأما المنجيات : فالعدل في الغضب والرضا ، والقصد ـ التوسط ـ في الفقر والغِنى ، وخشية الله تعالى في السرِّ والعلانية .

وأما المهلكات : فشحٌّ مطاع ، وهوى متبَّع ، وإعجاب المرء بنفسه »[3] .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الإمام أحمد والبزار ، والطبراني في معاجمه الثلاثة .

(٢) جمع سبرة وهي شدة البرد .

(٣) رواه البزار واللفظ له ، والبيهقي وغيرهما .

فاتباع الإنسان هوى نفسه ، ومطاوعته لما تُزَيِّنُ له نفسه : يعميه عن الحق ويصمه ، ويهلكه ويحطم إيمانه .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال : « إياكم والهوى ، فإن الهوى يُصمّ ويُعمي »[1] .

قال العلامة المناوي في شرح هذا الحديث : قال القاضي : الهوى هو : مَيل النفس إلى ما تشتهيه .

قال : والمراد هنا الاسترسال في الشهوات ، ومطاوعة النفس في كل ما تريد ، وسُمي بذلك ـ أي : سمي الهوى بالهوى ـ لأنه يَهوي بصاحبه في الدنيا إلى الراهنة ـ أي : المهلكة ـ ، وفي الآخرة إلى الهاوية .

قال : وقال العارف الجنيد : أَرِقْت لِعلة ، ثم اضجعت لأنام فتمايلت حيطان البيت ، وكاد السقف أن يسقط ، فخرجت فإذا أنا برجل ملتفّ بعباءة ، مُطَّرح في الطريق ، فقال : إليَّ الساعة ، فقلت : من غير موعد ؟ قال : بلى ، سألت محرّك القلوب أن يحرك قلبك ، قلت : قد فعل .

فقال ـ الرجل ـ : مَتى يصير داء النفس دواؤها .

قلت ـ أي : قال الإمام الجنيد ـ : إذا خالفتْ هواها .

فقال الرجل : يا نفس اسمعي ، أجبتك به ـ أي : بهذا الجواب ـ مرَّات فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد ؛ ثم انصرف الرجل . اهـ

فالواجب المحتم على كل مؤمن ومؤمنة الخوف من الله تعالى ، والخشية من الله تعالى في السرِّ والعلانية ، وفي الخلوة والجلوة ، فإنَّ الله

---

(١) قال في (الجامع الصغير) : رواه السجزي في (الإبانة) ورمز لصحته .

تعالى لا تخفى عليه خافية .

قال الله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

وكان الإمام أحمد رضي الله عنه ينشد :

إذا ما خلوتَ الدهر يوماً فلا تقل خَلَوْتُ ولكن قُل عليَّ رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة وَلاَ أَنَّ ما تُخفي عليه يغيب

فمن خاف الله تعالى ، ونهى النفس عن الهوى ، فهو المؤمن الآمن ، السعيد في الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ ذهب كثير من أئمة السلف المفسرين إلى أَنَّ المعنى : خاف مِنْ قيامه[1] وَمَوقفه للسؤال ، حين يوقفه الله تعالى للسؤال يوم القيامة عن : عمله ، وتمسكه بما جاء به رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ؛ مِن الأوامر الإلٰهية ، والتكاليف الشرعية ، التي جاءت في الكتاب والسنة ، وهي الأحاديث النبوية ، كما قال الله : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ والمراد بالحكمة السنة . أي : أقواله وأعماله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأخلاقه ، وإرشاداته إلى ما هنالك كما جاء عنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وفيها أكمل الهدىٰ وأفضله كما تقدم .

جاء في الحديث الذي رواه البخاري ، عن عدي بن حاتم رضي الله عنه وفيه ، قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ولَيلقينَّ اللهَ أحدكم يوم يلقاه ـ أي : يوم القيامة ـ ليس بينه وبينه حجاب ، ولا تَرجمان يُتَرْجم

---

(١) فالمقام مصدر بمعنى : قيام العبد وموقفه حين يسأله الله تعالى يوم القيامة .

له ، فليقولنَّ : ألَم أَبعث إليك رسولاً فبلَّغك ؟ .

فيقول ـ أي : العبد ـ : بلى » أي : جاء رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وبلَّغنا رسالتك ، وأدَّى الأمانة ، وبيَّن لنا كل شيء .

فيسأل الله تعالى كلَّ عبد عمَّا عمل بما جاء به رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

اللهم وفقنا لاتباعه ، والعمل بما جاء به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، بجاهه وبكرامته عليك صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وذهب قسم كبير من أئمة المفسرين من السلف إلى أَنَّ معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ﴾ أي : اطلاعه ورقابته سبحانه وتعالى لأعمال العبد ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أي : هو وحده الرقيب المطلع على جميع ما يصدر من العبد ؛ من خير أو شر ، وهو وحده العليم المحيط بجميع ذلك والحفيظ لكل ما هنالك .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ ﴾ أي : يغيب ﴿ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ أي : فهو سبحانه يسمع ذلك كله ، ويرى ذلك كله ، على حد سواء جل وعلا .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ فاتباع العبد لهواه يُلقيه في الهاوية ، فالواجب على العبد أن يكون هواه تابعاً لما جاء به رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وبذلك ينال سعادة الدنيا والآخرة .

جاء في الحديث ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

قال الإمام النووي في (الأربعين) : حديث حسن صحيح رويناه في كتاب (الحجة) بإسناد صحيح اهـ كما تقدم .

وجاء في رواية الطبراني : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ، ولا يزيغ عنه » .

أي : بأن يستقيم على ذلك ، ولا يزيغ ـ أي : لا يميل عمَّا جاء به رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ متبعاً للأهواء الفاسدة ، والآراء الضالَّة ، فإنها قد تُوْصله إلى حال يعمىٰ بها قلبه ، فيسودُّ ويَرْبدُّ ، ولا يبقى فيه ذرة من الإيمان ، كما بَيّن ذلك رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وحذَّر وأنذر .

روى الإمام مسلم ، عن حذيفة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « تُعرَض الفتن على القلوب عُوداً عُوداً[1] ، فأيُّ قلب أُشرِبها نُكِتت فيه نكتة[2] سوداء ، وأيُّ قلب أنكرها نُكِت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير ـ أي : قلوب الناس ـ على قلبين : على أبيض ـ أي : قلب أبيض ـ مثل الصفا ، فلا تضرّه فتنة ما دامت السماوات والأرض ، والآخر ـ أي : القلب الآخر المفتون ـ أسْوَد مُرباداً[3] كالكوز مُجَخِّياً[4] ، لا يَعرف مَعروفاً ، ولا يُنكر منكراً إلا ما أشرب مِنْ هواه » .

---

(١) أي : ملصقة إلى بعضها ، وفي رواية « عَوداً عوداً » بفتح العين تأتي وتعود وتتكرر .

(٢) النكتة هي الأثر في الشيء .

(٣) قال في (التيسير) : المرباد هو الذي في لونه ربدة وهي : لون بين السواد والغبرة .

(٤) هو المائل عن الاستقامة والاعتدال ، والمعنى : يصير القلب كالكأس المقلوب الذي=

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم : يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعَرض من الدنيا » وفي رواية : « يبيع أقوام دينهم بعرض من الدنيا » أي : بقليل مَنْ يبيع دينه ـ رواه مسلم والترمذي كما في (التيسير) .

قلوب عباد الله تعالى الصالحين

آنية رب العالمين

روىٰ الطبراني عن أبي عِنَبة رضي الله عنه ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إنّ لله تعالىٰ آنية من أهل الأرض ، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين ، وأحبُّها إليه ألينها وأرقُّها » قال الحافظ الهيثمي : إسناده حسن كما في (شرح الجامع الصغير) .

فقلوب الصالحين ـ وهم القائمون بما عليهم من حقوق الحق والخلق ـ هي آنية رب العالمين .

قال العلامة المناوي : بمعنى : أن نور معرفته سبحانه وتعالى تملأ قلوبهم ، حتى تفيض على الجوارح . اهـ.

وقد أنشد بعض العارفين في ذلك :

إذا سكن الغدير على صفاءٍ ... وجَنَّب أن يحركه النسيم

بَدَت فيه السماء بلا امتراء ... كذاك الشمس تبدو والنجوم

كذاك قلوب أرباب التجلّي ... يُرىٰ في صفوها الله العظيم

= لم يبق فيه قطرة ماء ، وهكذا يصير قلب المفتون ليس فيه ذرة من الإيمان .

ورضي الله تعالى عن القائل :

فيا ربِّ بالخلِّ الحبيب محمد ﷺ حبيبك وهو السيد المتواضع
أَنلنا مع الأحباب رؤيتك التي إليها قلوب الأولياء تُسارع
فبابك مقصود وفضلك زائد وجودك موجود وعفوك واسع
آمين

الله تعالىٰ لا ينظر إلى صور العباد وأجسادهم وأموالهم ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم

جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم ، ولكن إنما يَنظر إلى قلوبكم وأعمالكم » رواه مسلم ، وابن ماجه[1] .

ورواه الإمام مسلم أيضاً بلفظ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وجاءت هذه الرواية لمسلم في حديث جامع للآداب والأخلاق ولفظه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إيَّاكم والظنّ فإن الظنَّ أكذب الحديث ، ولا تجسَّسُوا ، ولا تَحَسَّسُوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله تعالى .

المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره .

بحسب امرىءٍ من الشرِّ أن يَحقِر أخاه المسلم .

---

(١) كما في (الجامع الصغير) .

كل المسلم على المسلم حرام : ماله ودمه وعرضه .

إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأجسادكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم

التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ .

أَلاَ لاَ يبع بَعضكم على بَيْع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً .

ولا يَحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » .

قال في (تيسير الوصول) : أخرجه الستة إلا النسائي وهذا لفظ مسلم . اهـ .

ومعنى قوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم » وفي رواية : « وأموالكم » أي : لا يجازيكم ويثيبكم على ظاهرها الخالي عن الخيرات ، ولا تقربكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم التي هي موضع الإيمان بالله ومعرفته ، والخشية منه ، وهي أوعية الأنوار والأسرار الإلَهية ، وأعمالكم التي بِها تقوى الله تعالى ، وامتثال أوامره ، واجتناب ما نهى عنه ، فَإنَّ ذلك هو الذي ينفعكم ، ويؤجركم الله تعالى عليه ، ويزيدكم من فضله وإحسانه وكرمه وعطفه ، ورحمته وبرِّه .

قال الإمام الغزالي رضي الله عنه : قد أبان هذا الحديث أَنّ محل القلب هُو موضع نظر الربِّ، فيا عجباً ممن يهتمُّ بوجهه الذي هو نظر الخلق؛ فيغسله وينظفه من القذر والدنس ، ويزيّنه بما أمكن لئلا يَطلع فيه مخلوق على عيب ، ولا يَهتم بقلبه الذي هو محلُّ نظر الخالق ، فيطهره ويزينه، ـ أي: فالواجب عليه أن يطهر القلب ويزينه بالخشية من الله تعالى، والخشوع وماهناك ـ، لئلا يَطَّلع ربه على دنس أو غيره في قلبه . اهـ

فالواجب على العبد اهتمامه بتطهير قلبه ، وتنظيفه مما يكرهه الله تعالى ، وأن يخشى من الله تعالى ، ويستحيي منه سبحانه أن يرى في قلبه ما لا يُرضيه سبحانه وتعالى .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أي : فعجِّلوا بالتوبة ، والرجوع إليه ، واستغفروه يغفر لكم .

وقال الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ الآية الكريمة .

فهو سبحانه : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ أي : يعلم مُسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله تعالى عنه ، وهذا يشمل نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية ـ أي : غير المحارم ـ وتطلُّع الرجل من النوافذ إلى جيرانه ، وإلى النساء ، ويشمل نظر العين إلى الأفلام والصُّوَر الخليعة التي فيها تكشيف عن العورات ، ويشمل ذلك النظر إلى جميع ما لا يحل النظر إليه شرعاً ، فإن تلك النظرات كلها مَفسدة للدين ، ومَدعاة للضلال وثغور الفسق والفجور والطغيان والشرور ، وفي ذلك قلة حياء الإنسان الناظر مِن ربّه المطلع عليه ؛ حيث كان ، وفي أيّ مكان ، الذي لا تخفى عليه خافية ، فالمُصِرُّ على ذلك خائن مع الله تعالى ، ودليل خيانته مع الله تعالى أنه استعمل عينه في النظر إلى ما نهى الله تعالى ، في حين أَنَّ الله تعالى جعل عينيه وأذنيه ، وجميع حواسه ومداركه ، وجوارحه وجوانحه ، جعل ذلك كله أمانات عنده ، فإذا تصرف بها العبد في غير ما أحل الله تعالى له فهو خائن مع الله تعالى ، لأنه تصرف فيها ، واستعملها في أمور لا يرضاها الله تعالى الذي ائتمنه عليها ، فهو مسؤول عن ذلك كله ، ومحاسب عليه ، والذي يُحاسبه هو الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ فيُسأل

الإنسان عن سمعه وبصره وفؤاده ، أين صرف ذلك ، وإلى أيّ جهة وَجّه ذلك ، هل تَصَرَّف بسمعه وبصره وفؤاده فيما أحلَّ الله تعالى أم فيما حرّم ، فيقال للإنسان لِمَ سمعت ما لا يحل لك سماعه ، ولِمَ نظرت إلى ما لا يحل لك النظر إليه ، ولِمَ عزمتَ بقلبك على ما لا يحل لك العزم عليه ، ولِمَ أحببتَ بقلبك ما كرهه الله تعالى ، ولمَ كرهت بقلبك ما يُحبه الله تعالى ، ولِمَ أبغضت ما يرضاه الله تعالى ، ولِمَ رضيت بما يُغضب الله تعالى ـ وهكذا يسأل الإنسان عن جميع تصرفاته وتقلباته : السمعية والبصرية ، وجميع تأثراته القلبية : بالتصديق والإنكار ، وبالحب والبغض ، والرضا والغضب ، والاستحسان والكراهية ، والاستكبار والاستصغار إلى ما هنالك .

فليتق الإنسان ربه تعالى في سمعه وبصره وفؤاده ، وليعلم أَنَّ جميع ذلك هو مسؤول عنه ؛ فما كان في الخير أُجر عليه ، وما كان في الشر عُوقب عليه .

روى الإمام البخاري ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أَنّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « مِن أفرى الفِرىٰ ـ أي : أعظم الكذب ـ أن يُري عينيه ما لم تر » أي : بأن يقول : رأيت في حين أنه لم يرَ ، فهو يكذب ويفتري .

وروى البخاري أيضاً ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « مَنْ تحلَّم بحلم لَم يَره كُلِّف أن يعقد بَيْنَ شعيرين ؛ ولن يفعل ، وَمَنِ اسْتَمَع إلى حديث قوم وهم له كارهون صُبَّ في أذنه الآنك ـ أي : الرصاص ـ يوم القيامة ، ومَن صوَّر صورة عُذِّب ، وكُلّف أن ينفخ فيها ـ أي : الروح ـ وليس بنافخ » .

ومعنى « تحلَّم بحلم » أي : ادَّعى أَنّه رأى في المنام كذا وكذا ولم ير

شيئاً من ذلك ، فَيُكلف يوم القيامة بعقده بين شعيرتين ، ويعذب حتى يعقد ؛ ولن يفعل .

وروى الترمذي ، عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « يُؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالى له : أَلَم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالاً ، وولداً ، وسَخَّرْت لَكَ الأنعام والحرث ، وتركتك تَرْأَسُ وتَربع ـ بالباء وفي رواية لمسلم : « وترتع » بالتاء أي : تنعم بالمآكل والمشارب ـ فكنت تظن أنك ملاقيَّ يومك هذا ؟ !! ـ أي : هل كنت في الدنيا تعتقد ذلك ـ .

فيقول العبد ـ أي : الكافر ـ لا .

فيقول الله تعالى له : اليوم أنساك كما نسيتني » أي : اليوم أتركك في العذاب كما تركت في الدنيا ديني وشريعتي ولم تؤمن بلقائي .

وروى أصحاب السنن، عن شَكَل بن حميد رضي الله عنه قال: (أتيت النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقلت : يا نبيَّ الله علِّمني تعويذاً أتعوَّذ به .

قال فأخذ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بيدي ثم قال : « قل : اللهم إني أعوذ بك من شرّ سمعي وبصري ، وشر لساني ، وشر قلبي ، وشرِّ مَنِيِّي » ـ أي : أن يضعه في غير ما أُحِلَّ له ـ قال : فحفظتها) .

القلب هو موضع الخشوع لله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ[1] لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا

---

(١) يقال في اللغة العربية : أنى يأني أَنْيا وإناءً بكسر الهمزة إذا جاء أناه أي : وقته وحينه كما يقال : آن يئين أينا ومعنى الفعلين واحد وهو الوقت والحين . انظر تفسير الآلوسي وغيره .

نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ .

والمعنى : أَلَمْ يجيء وقت ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن الكريم كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ وقال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهي الأحاديث النبوية ، فإنها نازلة من الله تعالى على رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، كما قال الله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي السنة . أي : أحاديثه الشريفة القولية والعملية ، وفيها بيان الأوامر والمناهي ، والقضايا الإيمانية ، والأحكام الشرعية وما هنالك كما تقدم .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ .

ومعنى : ﴿ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وذلك بأن تَلين قلوبهم وتخضع ، وتنفعل وتتأثر ، فتنقاد للأوامر الإلٰهية ، وتجتنب المناهي التي جاءت في الكتاب والسنة ، متأثرة بالمواعظ والتذكرات التي جاءت فيهما ، اتعاظاً يملأ القلب ، وتذكر يُورث الخشية من الله تعالى ، والخوف من عذابه وعقابه ، وحسابه وعتابه سبحانه وتعالى ، فيحمله ذلك على الطاعة الكاملة لله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

قال الله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يُحذّر الله تعالى عباده مِنْ قَسْوة القلب ، ويبين لهم أعظم الأسباب التي تُورث قسوة القلوب ، وهو : طول الأمد كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ ﴾ أي : فطال عليهم الزمان لطول آمالهم ، أو بطول أعمارهم ، فقست قلوبهم ، فهي لا تخشع ، ولا تخشى من الله تعالى ، فصاروا يجترئون على فعل المعاصي والمناهي ، دون مبالاة ، ولا خوف من يوم الحساب .

جاء في الحديث ، عن أنس رضي الله عنه ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم قال : « أربعة من الشقاء : جمود العين ، وقسوة القلب ، وطول الأَمَل ، والحرص على الدنيا » رواه البزار .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً قال : « صلاح أول هذه الأمة : بالزهادة واليقين ، وهلاك آخرها : بالبخل والأَمَل » رواه الطبراني وغيره .

وروى الإمام البخاري ، عن أنس رضي الله عنه قال : (خطَّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم خطّاً وقال : « هذا الإنسان » ، وَخطَّ إلى جنبه خطّاً وقال : « هذا أجله » ، وخطَّ آخر ـ أي : خطّاً بعيداً

منه ـ فقال : « هذا الأمَل ، فبينما هو ـ أي : الإنسان ـ كذلك إذ جاءه الأقرب » أي : جاء أجله الذي هو أقرب إليه ، ولم يدرك الأمل البعيد في الدنيا .

وروى الترمذي ، عن بريدة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « تدرون ما مِثْل هذه وهذه » ورَمَى بحصاتين ـ أي : إحداهما قريبة والأخرى بعيدة ـ .

قالوا : الله ورسوله اعلم .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « هذاك الأَمَل ـ أي : الحصاة البعيدة ـ وهذا الأجل » أي : القريبة .

القلب القاسي بعيد من الله تعالى

جاء في الحديث ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى ، فإنَّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قَسوة للقلب ، وإنَّ أبعد الناس مِنَ الله تعالى القلب القاسي » رواه الترمذي والبيهقي .

وروى الترمذي وابن ماجه وغيرهما ، عن أم حبيبة أم المؤمنين رضي الله عنها ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « كلُّ كلام ابن آدم عليه لاَ لَهُ ، إلاّ أمر بمعروف ، أَوْ نهيٌ عن منكر ، أو ذكر الله تعالى » .

وروى الترمذي وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنّ الرجل ليتكلَّم بالكلمة لاَ يَرى بها بأساً ـ أي : يظن أنها غير منهي عنها في الشرع ـ يهوي بها في النار سبعين خريفاً » أي : سنة ، وكذا في (ترهيب) الحافظ المنذري .

قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يُبين الله تعالى لعباده طريق علاج القلب القاسي ، وذلك بالإسراع والمداومة على تلاوة القرآن الكريم ؛ أو سماعه ، وتلاوة الأحاديث الشريفة النبوية ؛ أو سماعها ، فإنّ في ذلك رُوحاً يحيي الله تعالى به القلوب ، ويُلَيّنها بعد قسوتها ، فتخشع لربها وتضرع ، كما أَنّ في ذلك نوراً باهراً يُنَوِّر به القلوب ، ويطرد عنها الشكوك والظلمات ، قال الله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ﴾ أي : بأحاديثك وبيانك لهذا القرآن العظيم[1] ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ .

فكما أَنَّ الله تعالى يحيي الأرض الميتة الهامدة بماء المطر الذي يُنزله عليها ، كذلك هو سبحانه وتعالىٰ يُلين القلوب القاسية بهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم ، وببيانه الذي بَيّنه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم في أحاديثه الشريفة ، فإنها بوحي من الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ فقد تكفل سبحانه وتعالى أَنْ يُبين لرسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم معاني القرآن الكريم ، وأمره أن يبين ذلك للناس ، قال الله تعالى له : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فبيانه صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم في أحاديثه الشريفة كلها بوحي من الله تعالى .

وتقدم قول الله تعالى : ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وأن

---

(١) كما قال الله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ .

المراد بالحكمة السنة النبوية[1] ، وهي أحاديثه الجامعة ، وبياناته الساطعة صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فتدبر أيها العاقل في قول الله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ واعتبر في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ واعتبر في أرض القوالب الجسمانية المرئية المشهودة ، كيف يُحييها الله تعالى بعد موتها وقسوتها ، فيحييها ويلينها ـ اعبر من ذلك إلى أرض القلوب التي يحييها الله تعالى بروح القرآن وبالسنة . أي : أحاديثه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم القولية والعملية والخُلقية والأدبية .

ويرحم الله تعالى القائل الصادق في محبته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم :

فيا أيُّها الحيران في ظلمة الدُّجَىٰ ... ومَنْ خاف أَن يلقاه ضيم مِنَ العدا
تعال إليه ﷺ تلق من نور وجهه ... دَليلاً وَمِنْ كفَّيه بَحراً مِنَ النَّدىٰ

صلّىٰ الله العظيم عليك يا سيدنا يا رسول الله وسلَّم .

فائدة :

إذا ضاق بك الأمر ... فأكثر مِنْ ألم نَشْرح
فعسر بين يُسرين ... إذا كرَّرته تفرح

* * *

إن الأمور إذا تعسَّر حَلّها ... جاء القضاء مِنَ الإلَه فَحَلَّها
فلعلَّها ولعلَّها ولعلَّها ... ولعلَّ مَنْ عقد الأمور يَحلُّها

* * *

---

(١) كما نص على ذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وقد نقل جماعة من العلماء المتقدمين إجماع السلف الصالح على ذلك ، وهو أن المراد بالحكمة في الآية الكريمة هي : السنة النبوية الشريفة .

إلهي توسَّلنا بجاه سيدنا محمد ﷺ لِعُلياك في أمر تعسَّر حلُّه
إذا ضاق صدري والهموم تكاثرت فليس لها إلا الذي عمَّ فضله

تعوذه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من قلب لا يخشع وفي هذا تعليم للأمة

جاء في الحديث ، عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « اللهم إني أعوذ بك مِنْ قلب لا يخشع ، وَمِنْ دُعاء لا يُسمع ـ أي : لا يستجاب ـ وَمِنْ نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع ـ أعوذ بك من هؤلاء الأربع » .

قال في (تيسير الوصول) : رواه الترمذي والنسائي .

وفي هذا تعليم للأمة .

وقد كان صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يجهر بذلك ليحفظه الصحابة ، وَيُبَلِّغوه ، وقد فعلوا ذلك .

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهرم ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجَّال .

اللهم آتِ نفسي تقواها ، وَزكها أنت خير مَنْ زكَّاها ، أنت وليُّها ومولاها .

اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وَمِن قلب لا يخشع ، وَمِن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها »[1] .

قال العلامة العلائي : تضمن هذا الحديث الاستعاذة من دنيء أفعال

---

(١) كذا في (الجامع الصغير) معزواً إلى الإمام أحمد والنسائي رامزاً لصحته .

القلوب ، وفي قرنه بين الاستعاذة من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع إشارة إلى أن العلم النافع هو ما أورَث الخشوع . اهـ .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ الآية .

وقال الله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

تعليمه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أمته أدعية لتثبيت القلوب على الدين وحفظها من الزيغ

روى الترمذي والإمام أحمد وغيرهما ، عن أنس رضي الله عنه قال : كان النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يكثر أن يقول : « يا مُقَلِّب القلوب ثَبِّت قلبي على دينك » .

قالوا ـ أي : الصحابة رضي الله عنهم ـ : يا رسول الله آمنا بك ، وبما جئتَ به ، فهل تخاف علينا ؟

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « نعم . إنَّ القلوب بَين أُصبعين مِنْ أصابع الله تعالى يُقلبها » .

وروى الإمام أحمد ، وابن أبي شيبة ، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كثيراً ما يدعو « يا مُقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك » .

قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ؟ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ليس مِنْ قلب إلاّ وَهُو بَين أصبعين مِن أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يُقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يُزيغه أزاغه ، أما تسمعين قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ » .

فكان صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في مجالسه مع الصحابة ، يجهر بهذا الدعاء ، تعليماً لهم ليحفظوه .

وروى الطبراني في (السنة) والحاكم وصححه ، عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يكثر أن يقول : « يا مُقلِّب القلوب ثبِّت قُلوبنا على دينك » .

قلنا : يا رسول الله تخاف علينا وقد آمنا بك ؟ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنّ قلوب بني آدم ، بَيْن أصبعين مِنْ أصابع الرحمن كقلب واحد ، يقول به هكذا » أي : يتصرف به كما يشاء سبحانه وتعالى .

ولفظ الطبراني : « إنَّ قَلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الله عز وجلَّ ، فإذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه » .

وروى الإمام أحمد ، والنسائي وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، عن النواس بن سمعان قال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « الميزان بيد الرحمن ، يرفع أفواجاً ويضع آخرين إلى يوم القيامة ، وَقلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن : إذا شاء أقامه وإذا شاء أزاغه » .

وكان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » .

وروى أبو داود والنسائي ، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله

عنها ، أَنَّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كان إذا استيقظ مِنَ الليل قال : « لا إلَه إلا أنت سبحانك ، اللهم إنِّي أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم : زدني عِلْماً ، وَلاَ تُزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وَهَبْ لي من لدنك رحمة إنّك أَنْتَ الوهاب » .

وروى الإمام مسلم ، والنسائي وغيرهما ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أنه سمع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « إنّ قُلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن ؛ كقلب واحد ، يُصَرِّفه كيف يشاء » ثم قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « اللهم يا مُصَرِّف القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك » اللهم آمين[1] .

خوف الصحابة رضي الله عنهم من زيغ القلوب

روى الإمام مالك والشافعي ، وأبو داود والبيهقي ، عن أبي عبد الله الصنابحي أنه قدم المدينة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فَصلّىٰ وراء أبي بكر رضي الله عنه صلاة المغرب ، فقرأ أبو بكر رضي الله عنه في الركعتين الأُوْلَيَيْن بأمِّ القرآن ـ أي : سورة الفاتحة ـ وسورة مِن قصار المفصَّل ، ثم قام في الركعة الثالثة فقرأ بأم القرآن ، وهذه الآية : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ .

وقد قال كثير من العلماء المتقدمين : إنَّ قراءة أبي بكر رضي الله عنه لهذه الآية في الركعة الثالثة هي من باب الدعاء ـ فواظب على ذلك أيها المؤمن والمؤمنة .

وروى ابن سعد في (طبقاته) عن أبي عطاف ، أَنَّ أبا هريرة رضي الله

---

(١) انظر جميع ذلك في (الدر المنثور) .

عنه كان يقول : أيْ ربِّ ـ والمعنى : يا رب ـ لا أزْنِيَنَّ ، أيْ ربِّ لا أسرقنَّ ، أيْ ربِّ لا أكفرنَّ .

فقيل له : أتخاف ـ أي : من الوقوع في ذلك ـ .

فقال : آمنت بمقلّب القلوبِ ـ ثلاث مرات . اهـ .

إذا علمت ذلك يا أخي المسلم ، فالواجب عليك أن تواظب على دعاء ثبات القلب على الدين ، وحفظ القلب من الزيغ ، وَمَنْ دعا الله تعالى أجابه ، وَمَنْ سأله الثبات على الدين ثَبَّتَهُ وزاده ، وَمَنْ سأله حفظ قلبه مِنَ الزَّيغ حفظه الله تعالى ، وباعد قلبه عن الشكوك والوساوس والشبهات الضالة ، وحفظه من الفتن ما ظهر منها وما بطن ـ اللهم آمين .

ولا يجوز للمسلم أن يعتمد علىٰ نفسه ، ويظن أنه غير محتاج إلىٰ تثبيت الله تعالىٰ له ، كما أنه لا يجوز للمسلم أنْ يَغْتَرَّ بكثرة طاعاته وعباداته وأوراده ، وَيرى في نفسه أَنَّه غير محتاج إلى أن يَدْعُوَ الله تعالى ، وَيَسْأله الثبات ، والحفظ مِن زيغ القلب ، فإنَّ أصحاب سيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كانوا أقوى إيماناً ، وأبرَّ قلوباً ، وأعمق علماً ، وأكثر عبادة لله تعالى ، وطاعة لله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأعظم خشية من الله تعالى ، وخوفاً من عذابه ، وَمَعَ ذلك كانوا يسألون الله تعالى الثبات ، والحفظ من الزيغ ـ فواظب على ما يلي ، واجعل ذلك مِنْ أورادك :

اللهم يا مُقَلِّب القلوب ثَبِّتْ قلوبنا على دينك .

اللهم يا مُصَرِّف القلوب صَرِّف قلوبنا على طاعتك ـ أي : أقْبل بها على طاعتك ـ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ آمين بجاه حبيبك ورسولك سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

من صفات السابقين المقربين

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ .

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

فقوله تعالى في صفة السابقين المقربين : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ أي : أنهم من شدة خشيتهم من ربهم مشفقون ، لما يعلمون مِنْ عظمة ربوبيته ، وعزة ألوهيته ، وكمال أسمائه وصفاته ، وقوة مُلكه وسلطانه ، فَإن الخشية من الله تعالى هي على قدر معرفة العبد وعلمه بالله تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ ﴾ .

وإن أعلم الخلائق بالله تعالى هو سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فهو أشدهم له خشية وأتقاهم له .

كما جاء في (الصحيحين) أنّه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

وجاء في حديث آخر رواه الشيخان ، أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « أَمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له » .

فكلما ازداد المؤمن علماً بالله تعالى ، ومعرفة به ؛ ازداد منه خشية ، وله تقوى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ والمعنى أنهم يؤمنون بآيات الله تعالى الشرعية ، التي فيها الأوامر والمناهي ، وأحكام الحلال والحرام ، وبيان الآداب والأخلاق المرضية عند الله تعالى ، وفيها بيان جميع ما هنالك مما يُقربهم إلى الله تعالى ، فهم متمسكون بجميع ما أمرهم الله تعالى ، ومنتهون عن جميع ما نهى الله تعالى عنه .

كما أنهم يؤمنون بجميع آيات الله تعالى التكوينية ، ويتفكرون فيها ، ويزدادون إيماناً ومعرفة كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ أي : لا يشركون شِركاً جلياً ولا شركاً خفياً ، كالذي يعمل رياءً ، أو حباً في الفخر والظهور ، أو لأجل أن تمدحه الناس وتثني عليه ، فهو غير مخلص في عمله لله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ أي : هم يعملون ما أمرهم الله تعالى به ، مخلصين له سبحانه ، يبتغون مرضاته ، فهم يُنفقون ويتصدقون ، وهكذا يصومون ويصلون ، ولكن قلوبهم وجلة خائفة من الله تعالى ، ومِنْ موقفهم يوم يُرجعون إليه سبحانه ، ويحاسبهم ويسألهم ، فهم يخافون أَنْ يكونوا غير صادقين الصدق الوفيّ الكامل في أعمالهم التي عملوها ، أو غير مخلصين فيها الإخلاص الكامل .

جاء في الحديث الذي رواه الترمذي ، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ

وَجِلَةٌ﴾ أَهُمْ الذين يَشربون الخمر ويَسرقون ؟ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا يا بنت الصدّيق ، ولكنهم الذين يَصُومون ويتصدَّقون ؛ ويخافون أن لا يُقبل منهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ [1]﴾ » .

ورواه الإمام أحمد ولفظه : أنها قالت : يا رسول الله الذين يُؤتُون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي : يزني ويسرق ، ويشرب الخمر ، وهو يخاف الله عز وجل ؟ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا يا بنت الصديق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدَّق ، ويخاف الله عز وجل »[2] .

تذكَّر واتَّعظ وتبصَّر

روى الإمام البخاري في (صحيحه) عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال لي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : هل تدري ما قال أبي ـ أي : عمر رضي الله عنه ـ لأبيك ـ أي : أبي موسى رضي الله عنه ـ ؟ .

قال : قلت : لا .

قال ابن عمر رضي الله عنهما : فإن أبي قال لأبيك : (يا أبا موسى هَل يسرُّك أنَّ إسلامنا مع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وهجرتنا معه ، وجهادنا معه ، وعملنا كله معه ، بَرَدَ لنا[3] ، وَأنّ كل عمل عملناه

---

(١) انظر (تيسير الوصول) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير .

(٣) برد لنا : أي : يثَبت لنا ، ودام ثوابه ، وضاعف الله تعالى أجره أضعافاً مضاعفة أبداً .

بعده نجونا منه كفافاً : رأساً برأس) ؟ أي : لا هُوَ لنا ولا هو علينا ؟ .

فقال أبوك-لأبي : (لا والله قد جاهدنا بعد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وصلَّينا وصمنا ، وعَملنا خيراً كثيراً ، وأسلم على أيْدينا بَشَر كثير ، وإنّا لنرجو أجر ذلك) .

فقال أبي ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ: (ولكني أنا والذي نفس عمر بيده لَوَدِدْتُ أَنّ ذلك ـ أي : عملنا مع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ بَرَدَ لنا ، وَأن كل شيء عملنا بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس) .

قال أبو بردة : فقلت لابن عمر رضي الله عنهما : إنّ أباك والله كان خيراً من أبي .

فهذا عمر رضي الله عنه أمير المؤمنين ، ثاني الخلفاء الراشدين ، يَرجو مِنَ الله تعالى أن يقبل الله تعالى أعماله التي عملها مع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : إسلامه ، وهجرته ، وجهاده مع سيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وَأَنْ يُثيبه الله على ذلك ، وَأنْ يضاعف لَه أجره أضعافاً مضاعفة ، على وجه دائم بلا انقطاع ، وذلك بسبب أَنَّه عَمِل تلك الأعمال مَع سيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فعمر رضي الله عنه يرجو بجاه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عند الله تعالى ، وكرامته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم على الله ، وفضله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عند الله تعالى ، متوسِّلاً بذلك كله إلى الله تعالى : أن يقبل الله تعالى أعماله التي عملها مع سيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ويضاعف له أجرها ، على وجه لا ينقطع أبداً .

فهذا فيه إثبات التوسّل به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلى الله تعالى ،

وفضل التوسل به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عند الله تعالى ، وكيف لا تتوسَّل به وقد أعلم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أمته وأعلن لهم ، وبَيَّن لهم في مناسبات متعددة ، أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو أكرم الأولين والآخرين على الله تعالى ، وأنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو أحب الخلق إلى الله تعالى ، وَأنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو إمام الأنبياء والمرسلين ، وخاتمهم ، وقائدهم ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وأنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود ، ولواء الحمد ، وأنه فاتح باب الشفاعة ، وفاتح باب الجنة ، والكل يدخلون وراءه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

روى الترمذي ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنا أوّل الناس خُروجاً إذا بُعثوا ، وَأنا خطيبهم إذا وفَدوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، ولواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر » أي : أقول هذا متحدثا بنعمة ربي ، كما أمره بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم غير فخر » .

وهو حبيب الله الأكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم :

جاء في الحديث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ينتظرونه ، فتذاكروا .

فقال بعضهم عَجَباً ـ أي : أمر عظيم وفضل كبير ـ إنّ الله تعالى اتخذ

مِنْ خلقه خليلاً ؛ فإبراهيم خليل الله تعالى .

فقال آخر : ماذا بأعجب من أنه سبحانه كلَّم موسى تكليماً .

فقال آخر : فعيسى كَلِمَةُ الله وروحه .

وقال آخر : فآدم اصطفاه الله تعالى .

فخرج عليهم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وقال : « قَدْ سَمعت كلامكم وعجبكم ، إنَّ إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى نجيُّ الله وهو كذلك ، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك .

أَلاَ وَأنا حبيب الله تعالى ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر ، وأنا أوَّل شافع وأوَّل مُشفَّع يوم القيامة ولا فخر ، وأنَا أوَّلُ مَنْ يُحرِّك حلق الجنة ـ أي : باب الجنة ـ ولا فخر ، فيفتح الله تعالى فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ـ وفي رواية : « فقراء المهاجرين » ـ وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله تعالى ولا فخر »[1] .

أي : لا أقول ذلك تكبراً وتعاظماً على الناس ، بل تحدثاً بنعمة الله تعالى ، شاكراً له سبحانه ، وحامداً لله تعالى الذي أعطاني هذه الرتبة . اهـ من (شرح المواهب) .

وروى الترمذي ، والحاكم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال : « أحبُّوا الله تعالى لما يغذوكم به مِنْ نعمه ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي » أي : لحبي إيَّاهم .

---

(١) رواه الدارمي والترمذي ، وأبو نعيم كذا في (الخصائص الكبرى) .

ومعنى : « أحبوني لحب الله » أي : لحب الله إياي ، فإنه اتخذني حبيبه الأكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وقد نقل الحافظ القسطلاني رحمه الله تعالى في (المواهب اللدنية) عن العارف الكبير ، والعلامة الشهير ، سيدي إبراهيم الدسوقي أنه قال رضي الله عنه :

أَلاَ يا مُحب المصطفى زد صَبابةً وَضَمِّخْ لسان الذِّكر منك بطيبه
ولا تعبأنْ بالمبطلين فإنما علامة حب الله حب حبيبه
صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

وروى الإمام مسلم ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن : مَنْ أنت ، فأقول : محمد ، فيقول بك أمرت ـ أي : أمرني الله تعالى ـ أنْ لا أفتح لأحد قبلك » .

فما أكرم سَيِّدَنا محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم على الله تعالى ، وما أرفع مقامه عند الله تعالى ، وما أعظم وَجاهَته وجاهه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عند الله تعالى .

وقد ذكر الله تعالى وجاهة موسى وعيسى صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم عنده سبحانه ، فقال في موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ ، وقال في عيسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ .

فما ظنك بوجاهة وجاه إمام الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، فحقيق بالمؤمنين أن يتوسَّلوا به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلى الله تعالى ، وأن يتوسلوا بجاهه عند الله تعالى .

وكيف لا يتوسَّلون به إلى الله تعالى ، وبجاهه عند الله تعالى ، وقد أقامه الله تعالى في مقام ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ﴾ .

فحق على المؤمنين أن يتوسَّلوا إلى الله تعالى بمن هو أولى بهم من أنفسهم ، أي : هو أرحم بهم من أنفسهم ، وأرأف بهم وأحَنُّ وأشفق ، وأشد عطفاً عليهم مِنْ آبائهم وأمهاتهم ومن أنفسهم .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة ، أعلن ذلك رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وَبَيَّن أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو أولى بكل مؤمن مِنْ نفسه ، ولم يخص بذلك الصحابة رضي الله عنهم ، بل أعلم أمته ، وبين أَنَّ أَوْلَوِيته عامة لجميع المؤمنين في الدنيا والآخرة .

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ما مِنْ مُؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ﴾ ـ الآية ـ فأيُّما مؤمن ترك مالاً فلْترثه عصبة مَنْ كانوا ، وإن ترك دَيناً أو ضياعاً ـ أي : عيالاً ـ فليأتني فأنا مولاه » .

فبين صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عموم أَوْلَوِيَّته بالمؤمنين كلهم ، وأنها عامَّة لهم في الدنيا والآخرة ، صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فإذا اشتدت عليهم الكروب ، وعظمت الخطوب ، فليتوسلوا به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلى الله تعالى ، فإنه أولى بهم من أنفسهم .

ويرحم الله تعالى القائل :

إلَهي توسلنا بجاه محمدٍ ﷺ لعُلياك في أمرٍ تَعسَّر حَلُّه
إذا ضاق صدري والهموم تزايدتْ فليس لَها إلا الذي عَمَّ فضله

ويرحم الله تعالى القائل :

يا ربِّ يا ربِّ يا ربِّ

بالذُّلِّ قد وافيتُ بابك عالماً أَنَّ التذلل عند بابكَ ينفع
وَجعلتُ معتمدي عليك توكلاً وَبَسطتُ كفِّي سائِلاً أتضرَّع
فَبِحَقِّ مَنْ أحببتَه وبَعثْتَه وَأَجَبْتَ دعوة من به يستشفع
اجعل لنا مِنْ كل ضيق مخرجاً والطف بنا يا مَنْ إليه المرجع
ثم الصلاة على النبي وآله خير الأنام ومَنْ به يُتشفَّع

صلىٰ الله العظيم عليه وعلى آله وسلم ، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم .

هذا وإنَّ جميع ما تقدم ذكره ، من بعض القضايا الإيمانية ، والمعارف الربانية ، والمسائل العلمية ، هو مستمد من بعض تقريرات سيدي وشيخي والدي الكريم ، وبعض قليل من دروسه التي ألقاها في جامع الأموي الكبير ، فإنّ دروسه ومحاضراته العلمية والعرفانية كانت واسعة جداً ، وعميقة ، وكلها مؤيدة وثابتة بالكتاب والسنة ، والحمد لله رب العالمين .

ومما يدل على حَقِّيَّةِ التوسل به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، قبل وفاته وبعد وفاته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه :

روى الإمام الترمذي والنسائي والبيهقي ، من طرق متعددة ، عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه ، أن رجلاً ضرير البصر ، أتى النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال : ادع الله أن يعافيني ـ أي : بأن يَردَّ عليه بصره ـ .

فقال له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنْ شئتَ دعوتُ ، وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك » .

قال ـ الرجل ـ: فادعه .

قال عثمان : فأمره النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنْ يتوضأ فيحسن وضوءه ، ويدعو بهذا الدعاء : « **اللهم إني أسألك وأتوجَّه إليك بنبيك نبيّ الرحمة ، يا محمد إني توجَّهتُ بك إلى ربي في حاجتي لتقضىٰ لي ، اللهم فشفّعه فِيَّ** » .

وزاد البيهقي في روايته من طرق : (فقام الرجل وقد أبصر) .

وفي رواية : ففعل الرجل فبرأ ببركته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وروى الطبراني والبيهقي بإسناد متصل ورجاله ثقات ، عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه : أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه ـ حين كان خليفة ـ فكان عثمان بن عفان رضي الله عنه لا يلتفت إليه ، ولا ينظر في حاجته ـ أي : لكثرة أشغاله ـ فلقي الرجل عثمان بن حنيف رضي الله عنه فشكى إليه ذلك .

فقال له عثمان بن حنيف رضي الله عنه : ائت الميضأة ـ أي : موضع الوضوء ـ فتوضأ ثم ائْتِ المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل :

« **اللهم إني أسألك وأتوجَّه إليكَ بنبيك محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم نبيّ الرحمة ، يا محمد إني أتوجَّه بك إلىٰ ربي في حاجتي لتُقضى** » وتذكر حاجتك ، ورُح حتى أروح معك .

فانطلق الرجل فصنع ما قال له عثمان بن حنيف رضي الله عنه ، ثم أتى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فجاء البواب حتى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان رضي الله عنه فأجلسه معه على الطنفسة .

فقال له عثمان بن عفان رضي الله عنه : حاجتك ـ فذكرها له .

فقال له : فاذكر حاجتك ـ أي : التي كنت طلبتها ـ حتى كان الساعة .

وقال له : ما كان لك من حاجة فاذكرها ـ أي : اذكرلي جميع حاجاتك ـ.

ثم إنَّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف رضي الله عنه فقال له الرجل : جزاك الله تعالى خيراً ، ما كان ينظر في حاجتي ، ولا يلتفت لي ، حتى كلمته .

فقال له عثمان بن حنيف رضي الله عنه : والله ما كلمته ، ولكنني شهدتُ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وآتاه ضرير ، فشكى إليه ذهاب بصره ، فقال له النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أَوَ تَصْبِر » فقال : يا رسول الله ليس لي قائد ، وقد شق عليَّ .

فقال له النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ائت الميضأة فتوضأ ، ثم صَلِّ ركعتين ، ثم ادع بهذه الدعوات » ـ أي : التي مرَّ ذكرها ـ.

فقال عثمان بن حنيف رضي الله عنه : فوالله ما تفرقنا وطال بنا الحديث ؛ حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضرر قطّ ـ أي : فرد الله تعالى بصره في الحال سريعاً ـ.

فادع الله تعالى أيها المؤمن والمؤمنة بهذا الدعاء بعد صلاة ركعتين ؛ في حاجاتك لتُقضى .

وقد نقل الإمام النووي رضي الله عنه في (تهذيبه) في ترجمة عقبة بن عامر رضي الله عنه ، أنه شهد فتوح الشام ، وكان هو البريد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح دمشق ـ أي : هو حامل الأخبار إلى

عمر رضي الله عنه من دمشق إلى المدينة المنورة به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ ووصل إلى المدينة المنورة بأنواره صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في سبعة أيام ، ورجع منها إلى الشام في يومين ونصف ، بسبب دعائه عند قبره الشريف صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وتشفعه به في تقريب طريقه . اهـ .

فكانت الأرض تطوىٰ له طيّاً ببركته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أبداً أبداً .

ومما يدل على صحة وحقية التوسل بالنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلى الله تعالى أنّه قد ثبت وَصَحَّ توسل العبد المؤمن إلى الله تعالى بعمله الصالح الخالص لله تعالى ، كما دل على ذلك حديث أصحاب الغار الآتي ، فالتوسل إلى الله تعالى بسيد الصالحين ، وإمامهم ، الذي شهد الله تعالى له أنه قد نال أعلى مقام في الصلاح ، واختصه به الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

فإنّ تولِّي الله تعالى للمؤمن يكون على حسب صلاحه ، فلما كان سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أعطاه الله تعالى أعلى مقام في الصلاح ، خاص به ، فلذلك خصه الله تعالى بتولية له خاصة ، فوق كل تولية ، وأنزل ذلك في كتابه العزيز إعلاماً وإعلاناً .

قصة أصحاب الغار
وتوسلهم إلى الله تعالى بأصدق أعمالهم

روى الشيخان وأبو داود ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم ، حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوا فيه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أَنْ تدعوا الله بصالح أعمالكم .

فقال أحدهم : اللهم إنّه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت أرعى عليهما ، ولا أغبق[1] قبلهماأهلاً ولا مالاً ، وإنَّه نأىٰ ـ أي : بعُد ـ بي طلب الشجر يوماً ـ لرعي الغنم ـ فلم أُرح عليهما ـ مساء ـ حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما قد ناما ، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ومالاً ، وكرهْت أن أُوقظهما ، والصبية يتضاغون[2] عند قدمي ، والقدح ـ أي : فيه الحليب ـ على يدي أنتظر استيقاظهما ، حتى برق الفجر .

اللهم إنْ كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ؛ ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ـ فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لي ابنة عم هي أحب الناس إليَّ ، فأردتها على نفسها فامتنعت مني[3] ، حتى أَلَمَّتْ بها ـ أي : أتت عليها ـ سنة من السنين ـ أي : فقر وقحط ـ فجاءتني فأعطيتها مائة وعشرين ديناراً على أن تخلي بيني وبين نفسها ـ أي : ليطأها ـ ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها قالت لي : لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه[4] ـ أي : حقه الشرعي ـ قال : فتحرَّجت ـ أي : تباعدت خوفاً ـ من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها ، وهي أحب الناس إليَّ وتركت الذهب لها .

اللهم : إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ؛ ففرّج عنا ما نحن فيه ـ فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج .

فقال الثالث : اللهم إني كنت استأجرت أجراء ، فأعطيتهم

---

(١) الغبوق هو شراب آخر النهار ، وكان يسقيهما لبن الغنم .

(٢) أي : يضجون ويصيحون من الجوع .

(٣) أبت أن تمكنه من نفسها .

(٤) كناية عن الجماع . كذا في (تيسير الوصول) .

أُجورهم ، غير رجل ترك أجره وذهب ، فَثَمَّرته له حتىٰ كثرت منه الأموال ؛ فجاءني بعد حين ـ أي : زمان طويل ـ فقال : يا عبد الله أدِّ إليَّ أجري .

فقلت له : كل ما ترى من البقر والغنم والإبل والرقيق أجرك ، اذهب فاستقه .

فقال لي : يا عبد الله لا تستهزىء بي .

فقلت له : إني لا أستهزئ بك ، اذهب فاستقه ، فأخذه كله ـ أي : ساقه وأخذه كله ـ .

اللهم إنْ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ؛ فافرج عنا ما نحن فيه ـ فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون » .

* * *

البيان المؤكد من رب العالمين
أن رسوله سيدنا محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم
أرسله الله تعالى رحمة لجميع العالمين
حيثما كانوا وأينما كانوا

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة إعلان من الله تعالى ، وبيان لجميع العوالم ، أَنّ رسول الله سيدنا محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، فرسالته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم التي جاء بها هي كاملة وشاملة لجميع العالمين ، فإنّ جميع ما جاءت به الرسالة المحمدية صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عقائد إيمانية ، وقضايا توحيدية ، وأحكام شرعية ؛ فيها الأوامر وفيها المناهي ، وفيها بيان الحلال والحرام ، وجميع ما جاءت به من المبادىء المستقيمة ، والإرشادات الحكيمة ، والأخلاق الكاملة ، والآداب الفاضلة ، كل ذلك فيه الرحمة للعالمين ، تخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن الظلم والعدوان والطغيان إلى ساحة العدل والإحسان .

قال الله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

هذه الآية الكريمة لما سمعها كثير من العقلاء في زمن الجاهلية أسلموا ، وآمنوا بسيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وعرفوا معرفة حقة صادرة عن تدبُّر وتذكر أنّ هذا الكلام كلام رب العالمين ، أنزله الله تعالى على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين على ربِّ العالمين ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين .

روى الحافظ أبو يعلى ، وأبو نعيم ، وابن منده وغيرهم ، أنَّ أكثم بن صيفي لما بلغه أمر رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وانتشار رسالته ، أراد أن يأتي إلى رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فأبىٰ قومه ، فاختار رجلين ـ أي : من أذكياء وفطناء قومه ـ وقال لهما : سلاه مَنْ أنت ، وما أنت ـ وفي رواية : وما جئت به ـ.

فأتيا النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقالا له : نحن رسل أكثم بن صيفي وهو يسألك : مَنْ أنت ، وما أنت ـ وفي رواية : وما جئت به ـ.

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أمَّا مَنْ أنا : فأنا محمد بن عبد الله ـ أي : أنا المعروف بأشرف الأنساب وأكرم الحسب ـ وأما ما أنا : فأنا عبد الله ورسوله » ثم تلا عليهم هذه الآية الكريمة : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

فقالا له : ردّد علينا هذا القول .

فردّده صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حتى حفظاه .

فأتيا أكثم فأخبراه ، فلما سمع الآية قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهىٰ عن ملائمها ـ وقال لقومه ـ فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ولا تكونوا فيه أذناباً اهـ. أي : أسرعوا إلى الإيمان بهذا الرسول الكريم ، والدخول في دينه ، وكونوا دعاة له ، وقادة فيه ، فإنَّ فيه العزة والكرامة ، وسعادة الدنيا والآخرة .

وجاء في بعض روايات هذه القصة : أنّ أكثم ركب متوجهاً إلى النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فمات في الطريق . اهـ[1]

---

(١) انظر ما تقدم في (الدر المنثور)، وتفسير (رُوح المعاني) وتفسير الحافظ ابن كثير=

ولما قرأ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هذه الآية الكريمة على عثمان بن مظعون رضي الله عنه أخذت بمجامع قلبه ، فقال رضي الله عنه : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي ، وأحببتُ محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ أي : أحبه حباً ملأ قلبه حتى صار رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أحب خلق الله تعالى إليه ـ.

فجميع الأوامر التي جاء بها رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فيها الرحمة للعالمين ، وفيها سعادة الدنيا والآخرة ، وصلاح الدنيا والآخرة ، كما يدلك على ذلك الحديث الآتي :

روى الإمام أحمد في (مسنده) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أتاه مَلكان فيما يرى النائم ، فقعد أحدهما عند رجليه ، والآخر عند رأسه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : اضرب مثل هذا ومثل أمته .

فقال : إنَّ مثله ومثل أمته كمثل قوم سَفْر ـ أي : مسافرين ـ انتهوا إلى رأس مفازة ـ أي : صحراء دَويَّة منقطعة ـ ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ، ولا ما يرجعون به ، فبينما هم كذلك إذا أتاهم رجل في حُلَّة حَبِرة ـ عليه صفة الرجال أهل الكمال ـ فقال لهم : أرأيتم إن وَرَدْتُ بكم رياضاً معشبة ، وحياضاً رُواءً ـ أي : ماؤها كثير يروي العطاش مهما كانوا في كثرة ـ تتبعوني ؟ ـ أي : هل تتبعوني إن دَللتكم على ذلك ؟ ـ.

= وغيرها ، وقد تكلمت بعض الكلام حول تفسير هذه الكريمة في كتاب (هدي القرآن الكريم) فارجع إليه .

فقالوا : نعم .

فانطلق بهم ، فأرودهم رياضاً ـ بساتين وحدائق ـ معشبة ، وحياضاً رُواءً ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ـ أي : ذهب عنهم الخوف ، والجوع والعطش ، والنصب والتعب ـ.

فقال لهم : ألم أُلْفِكُمْ ـ أي : أجدكم ـ على تلك الحال ـ أي : الجوع والعطش والخوف ـ فجعلتم لي إن وردتُ بكم رياضاً معشبة ، وحياضاً رُواءً أن تتبعوني ؟ .

فقالوا : بلى ـ أي : أطعناك وصَدقتنا فيما وعدتنا ـ فقال : فإن بَيْن أيديكم ـ أي : أمامكم ـ رياضاً هي أعشب من هذه ، وحياضاً هي أروىٰ من هذه ؛ فاتبعوني ـ أي : اتبعوني حتى أُوصلكم إليها ـ.

فقالت طائفة منهم : صَدَق والله لنَتَّبعنَّهُ .

وقالت طائفة : قد رضينا بهذا ، نقيم عليه . أي : فبقوا على ماهم عليه ، ولم يتبعوه .

ومن هنا تعلم أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جاء بما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، فهذا مَثَلٌ لمن أطاع النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم واتبعه في جميع ما جاء من سعادة الدنيا والآخرة ، ، وصلاح الدنيا والآخرة ، وخير الدنيا والآخرة ، وهم المؤمنون الصادقون ، الفائزون المفلحون .

اللهم اجعلنا منهم بجاه رسولك الأكرم ، ونبيك المعظم ، سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وبكرامته عليك ـ آمين .

فرسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أرسله الله تعالى رحمة للعالمين في الدنيا والآخرة :

روى مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله

أدع على المشركين ـ أي : لأنهم كانوا يؤذون المؤمنين ، ويعادون رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ويسعون جهدهم في صد الناس عن الإيمان به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ.

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنِّي لَمْ أُبعث لعَّاناً ، وإنما بُعثتُ رحمة » .

وروى البيهقي ، والحاكم وصححه على شرطهما وأقره الذهبي كما في (شرح المواهب) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنما أنا رحمة مُهداة » أي : أهداها الله تعالى للعالمين كلهم .

وروى أبو نعيم في (الدلائل) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إن الله بعثني رحمة للعالمين ، وهدى للمتقين » .

فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم رحمة في ذاته ، وفي صفاته ، وفي شمائله الشريفة الكريمة ، وفي أخلاقه العظيمة ، وفي شريعته المستقيمة ، وأحكامه الحكيمة ، وفي جميع ما جاء به من أوامر وإرشادات ، وتوجيهات ، فجميع ذلك هو رحمة للعالمين صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

ورحمته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للعالمين ما تنقطع في جميع العوالم ، على امتدادها وتعاقبها ، وهي متصلة متواصلة ، فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم رحمة للعالمين في الدنيا والبرزخ ، والحشر ومواقف الآخرة وعوالمها ، إلى ما هنالك ، فخيره وبرُّه وإحسانه كلٌّ ذلك مستمرٌّ لا ينقطع ، يرحم الله تعالى به العالمين ، ويدلُّك على ذلك الأحاديث الشريفة التالية :

روى الإمام البزار وغيره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « **حياتي خير لكم ، ومماتي خير لكم ، أما حياتي** فأبين لكم السنن ، وأشرع لكم الشرائع ، **وأما موتي** فإنّ أعمالكم تُعرض عليَّ ؛ فما رأيت منها حسناً حمدتُ الله تعالى ، وما رأيت منها سيئاً استغفرت الله تعالى لكم »[1] .

وروى ابن سعد ، عن بكر بن عبد الله مرسلاً ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « حياتي خير لكم : تُحدِثون ويُحدَث لكم[2] ، فإذا أنا متُّ كانت وفاتي خيراً لكم ، تُعرض عليَّ أعمالكم ، فما رأيت خيراً حمدت الله تعالى ، وإن رأيت شراً استغفرت لكم »[3] .

ويرحم الله تعالى القائل كما في (المواهب اللدنية) :

غنيمةُ عمر الكون بهجة عيشه ... سرور حياة الروح فائدة الدهر

هو النعمة العظمى هو الرحمة التي ... تَجلَّىٰ بها الرحمن في السِّرِّ والجهر

صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم ، وعلينا معهم ـ آمين .

وبذكر الحبيب المحبوب تَنفرج الكروب ، وتُسرّ وتفرح القلوب :

كَرِّر عليَّ حديثهم يا حادي ... فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

---

(١) قال الحافظ الزرقاني في (شرح المواهب) : رواه البزار وغيره بسند جيد . اهـ.

(٢) أي : تُحدثون أعمالاً ويُحدث لكم أحكام شرعية تبين الحلال والحرام .

(٣) رواه الحافظ السيوطي في (الجامع الصغير) رامزاً لحسنه ، وقال الشارح العلامة المناوي : ورواه البزار من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ـ أي : موصولاً ـ وقال الحافظ الهيثمي : رجاله رجال الصحيح . اهـ. ورواه الحافظ العراقي في (شرح التقريب) بهذا النص وقال : رواه البزار في (مسنده) بإسناد جيد . اهـ.

رحمته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للعالمين في الآخرة

ومن الأدلة على استمرار رحمته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للعالمين في الآخرة ، وعوالمها ومواقفها ، مما يدلك على ذلك أحاديث الشفاعة ، وهي أنواع متعددة : العامَّة والخاصة ، وخاصة الخاصة ، وهكذا ، حتى أنّه يشفع في المؤمنين بعدما دخلوا الجنة ليرفع الله تعالى درجاتهم ، ويرقيهم في منازلهم ، كلٌّ على حسب رتبته ومقامه .

فهناك الشفاعة العامَّة لجميع أهل الموقف ، ليخلِّصهم مِنْ حَرّ الموقف وكُرباته وأهواله الطويلة ، **وتسمى الشفاعة العظمى** ، وهي من خصائص سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وهي المقام المحمود الذي وعده الله تعالى به في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ .

وسُمِّيَ ذلك بالمقام المحمود : لأن أهل الموقف كلهم : بَرُّهم وفاجرهم ، وسعيدهم وشقيهم يَحمدون رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لمَّا يشفع بأهل الموقف ، ويُنقذهم مِن أهوال الموقف وكرباته وشدائده ، وكلهم يثنون عليه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

قال الإمام البخاري : باب قول الله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ ثم ذكر سنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : (إنّ الناس يَصيرون يوم القيامة جُثى ـ أي : جماعات ـ كلُّ أمة تَتْبَعُ نبيها ، يقولون : يا فلان اشفع لنا ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود) .

وسبب هذه الشفاعة العامة ، أن أهل الموقف لما تَشتدّ عليهم الأهوال ، ويطول ذلك عليهم ، حتى إنَّ الكافر يتمنىٰ وَيَرجو أن يَنْفَضَّ أمره ولو إلى النار ، كما جاء في الحديث الذي رواه الطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال : « إن الرجل ـ أي : الكافر كما جاء في رواية موقوفة : (إن الكافر) ـ لَيُلْجمه العرق يوم القيامة فيقول : يا رب أرحني ولو إلى النار » .

فحين يطول ذلك عليهم ويشتدّ ، يطلبون مَنْ يُنقذهم مِنْ ذلك ، ويخلّصهم من تلك الأهوال والكربات :

روىٰ الشيخان ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : كنا مع النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في دعوة ، فرُفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه الذراع ـ أي : لأنها طرية لينة ـ فنهس منها نهسة وقال ـ أي : بعدما فرغوا من الطعام ، قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وجعل يحدثهم ـ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، هل تدرون لِم ذلك ؟ يجمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد ، فيبصرهم الناظر ، ويسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيبلغ الناس مِنَ الغَمِّ والكرب ما لا يُطيعون ولا يحتملون ، فيقول الناس ـ أي : لبعضهم ـ : أَلاَ تَرون إلى ما أنتم فيه ، أَلاَ تَنْظرون مَنْ يشفع بكم ؟ .

فيقول بعضهم لبعض : أبوكم آدم .

فيأتونه فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك مِنْ روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك الجنة ، أَلاَ تَشفع لنا إلى ربك ، أَلاَ ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه وما بلغنا ؟ .

فيقول آدم عليه السلام : إنَّ ربي قد غَضِب اليوم غضباً لَمْ يغضب قبله

مثله ، وَلَنْ يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيتُ ، نفسي نفسي نفسي ، إذهبوا إلى غيري ، إذهبوا إلى نوح عليه السلام .

فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبداً شكوراً ، أَلاَ ترىٰ إلى ما نحن فيه ، أَلاَ ترىٰ إلى مَا بلغنا ، أَلاَ تشفع لنا إلى ربك ؟ .

فيقول : إنَّ ربي قد غضب اليوم غضباً لَمْ يغضب قبله مثله ، وَلَنْ يغضب بعده مثله ، وإني قد كانت لي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بها على قومي ، نفسي نفسي نفسي ، إذهبوا إلى غيري » .

وهكذا يذهبون إلى إبراهيم عليه السلام ثم إلى موسى عليه السلام ، ثم إلى عيسى عليه السلام ، فكل منهم يعتذر ويقول : (نفسي نفسي نفسي) وقد فصلت ذلك في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) ، وأتيت بروايات متعددة ، وشرحت وَبَيَّنت بياناً شافياً فارجع إليه .

ثم بعد ذلك يأتون سيدنا محمداً رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم « فيقولون : يا مُحمد أَنْتَ رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وَقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، أَلاَ ترى إلى ما نحن فيه .

فيقول : أنا لها أنا لها » ـ كما جاء في رواية لهما : أي : الشيخين ـ .

قال : « فأنطلق إلى تحت العرش فأقع ساجداً لربي ، ثُم يفتح الله عليَّ مِنْ محامده وحسن الثناء عليه شَيئاً لَمْ يفتحه على أحد قبلي » .

وجاء في رواية لهما أيضاً : « فأقول أنا لها ، فأنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي » .

وفي رواية : « فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله عليَّ مِن محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي » .

وفي رواية للبخاري : « فيلهمني الله تعالى محامد لا أقدر عليها الآن ، فأحمده بتلك المحامد ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » .

وفي رواية لهما : « فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، فإذا أنا رأيته وَقعت له ساجداً ، فيدعني ما شاء الله فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشْفع تشفَّع ، فأحمد ربي بتحميد يُعلِّمنيه ربي » أي : يعلمه ذلك في ذلك المواقف ، وهو ساجد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أبداً أبداً .

فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يَشفع أوَّلاً في إراحة الخلائق من أهوال الموقف ، وطوله وكرباته ، كما جاء في رواية (مسند) البزار ، قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فأرفع رأسي ـ أي : من ذلك السجود الطويل تحت العرش ـ فأقول : يا ربِّ عجِّل الحساب على كافة الخلق » أي : المؤمنين والكافرين ، فينقذهم من هول الموقف .

ثم بعد التحول من الموقف يَشفع الشفاعات الخاصة ، وهي أنواع كثيرة ، ومنافعها وفوائدها جليلة كبيرة ، يعجز عنها الاستقصاء والإحصاء .

نسأل الله العظيم ، ربَّ العرش العظيم ، بجاه سيدنا محمد ذي الخلق العظيم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن يُشفّعه فينا في جميع العوالم . اللهم آمين .

سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم
هو أعظم محمودٍ من الخلق أجمعين
وهو سيدنا أحمد
هو أحمد خلق الله تعالى لله رب العالمين في جميع العوالم

هذان الاسمان العظيمان ، يدلان على مقامين عظيمين من مقاماته الفرديَّة ، التي خصَّ الله تعالى بها رسول الله سيدنا محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

واعلم بأن آثار هذين المقامين أي : مقام أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو أعظم محمود من خلق الله تعالى أجمعين ، ومقام أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو أحمد خلق الله تعالى لرب العالمين ، هذان المقامان لهما آثار ومظاهر ظاهرة في جميع العوالم : عالم الدنيا ، وعالم البرزخ ، وعوالم الآخرة ، وفي عالم الجنة ، وهكذا أبداً لا تنقطع .

فهو سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، فجاء بشريعة فيها السعادة والعزة والكرامة والسيادة في الدنيا والآخرة ، فجاء صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُنقذ العالَم مِنَ الضَّلال المبين إلى الحق المبين ، بأدلة قاطعة ، وبَيِّنات ساطعة ، تجعل العقول مستسلمة خاضعة ، فيها البيان والهدى إلى كل أنواع الخير ، وفيها التحذير والإبعاد عن جميع أنواع الشرِّ ، فالعقلاء وأهل الحكمة والفطنة آمنوا به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، واستجابوا لدعوته ، لأنها معقولة مقبولة فحمدوه وأثنوا عليه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، واتبعوه ،

وأحبُّوه ؛ لأنه دَلَّهم على كل خير ، وحذَّرهم مِنْ كل شر ، ونقلهم من طور الجاهلية العمياء القائم على الهمجية والوحشية والبهيمية ، وحَوَّلهم إلى طَوْر المدنية والحضارة الإسلامية ، والسعادة الأبدية صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وأما الكفار فعاندوا وعارضوا ، واتبعوا أهواءهم البهيمية والشهوانية ، كما وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فلو أنهم تبصّروا وتعقلّوا وتفكروا ؛ لعلموا يقيناً أن الحق هو فيما جاء به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قطعاً ، ولكن وقفوا مع أهوائهم ، ومع عنادهم وكبرهم ، كما أخبر الله تعالى عما يقولون حين يُسألون يوم القيامة : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ .

فقد جاء صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بالبينات التي تخضع العقول السليمة لها ، وجاء بالنور الذي يُنور الأبصار والبصائر ، كما قال الله تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ .

وأمر الله تعالى رسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أَنْ يُعلن للناس وَيُبَيِّنَ لهم ، أنَّ سبيله الذي جاء يدعو إليه ، وأن دعوته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلى الله تعالى هي على بصيرة ونور ، ليس فيها عماوة ولا التباس ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

كما بَيَّن الله تعالى أن رسوله سيدنا محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو برهان من الله تعالى قاطع ، يدل على وجود الله تعالى ووحدانيته سبحانه ، واتصافه سبحانه بالكمالات المطلقة التي لا نهاية لها ، وذلك

بسبب الآيات والمعجزات والبينات التي أيّده الله تعالى بها ، كما قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ .

فالنور المبين الذي أنزله الله تعالى هو الكتاب المبين ، الذي أنزله الله تعالى على رسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، والبرهان هو سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، كما وصفه الله تعالى بأنه البينة ، أي : بينة الله تعالى الكبرىٰ ، وحجة الله العظمىٰ على جميع العالمين .

قال الله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ ﴾ .

فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم البينة الساطعة ، وحجة الله تعالى القاطعة .

كما وصفه الله تعالى بأنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بُرهان من الله تعالى ، ووصفه سبحانه بالبينة وذلك بسبب القرآن العظيم المعجز[1] ، الذي فيه التحدي لجميع العالم بأن يأتوا بمثله ، وتسجيله عجز جميع العالم أن يأتوا بمثله ، كما قال سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ فكلهم عاجزون عن الإتيان بمثله ، ولو بسورة واحدة ، ففي هذا برهان قاطع ،

---

(١) المعجز مِنْ وجوه كثيرة كبيرة ، حتى أنَّ من جملة وجوه إعجازه : العجز عن الإحاطة بوجوه إعجازه ، كما ذكرت طرفاً من ذلك في كتاب (هدي القرآن العظيم) فارجع إليه .

وبينة كبرى تدل على أن الله حق واجب الوجود ، وأن هذا كلامه ، أنزله على عبده ورسوله سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وهذا برهان قاطع ودليل ساطع ؛ على أن سيدنا محمداً هو رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حقاً .

كما وأنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هُو بُرهان من الله تعالى ، وبينته الكبرىٰ بسبب المُعجزات الخارقة للعادات ، التي أيده الله تعالى بها ، وتلك المعجزات هي أنواع كثيرة فيها الحجة على جميع الطبقات والأجيال ، فمنها المعجزات السماوية ، ومنها الأرضية ، ومنها الشجرية والنباتية والمائية ، ومنها الإخبارات الغيبية عما مضى وعما هو آت ، ومنها المعجزات السمعية والبصرية ، والخَلْقية والخُلُقية ، صلّىٰ الله العظيم عليه وآله وسلَّم ، وهكذا هناك معجزات ومعجزات ، أنواع كثيرة ، وقد ذكر علماء الحديث قسماً كبيراً منها في مصنفاتهم : الجوامع ، والسنن ، والموطآت ، والمسانيد ، والمعاجم ، كما صنف المحدثون مصنفات واسعة تملأ مجلدات كبيرة كثيرة ، وذكروا فيها جملة واسعة من معجزاته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ومن ذلك (دلائل النبوة) للإمام البيهقي ، و(دلائل النبوة) للحافظ أبي نعيم وغيرهما .

سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم
هو محمود في جميع العوالم
وفي الملأ الأعلى والأدنى

قال الله تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ

سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ .

فقد ذكر الله تعالى رسولَه الأكرم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، في التوراة والإنجيل باسم محمد ، واسم أحمد كما سيأتي إن شاء الله تعالى ، وأثنى الله تعالى عليه وعلى الذين معه ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ ﴾ ـ أي : عظموه ـ ﴿ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ اللهم اجعلنا منهم بكرامته عليك صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وروى الترمذي ، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه قال : (مكتوب في التوراة صفة محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وعيسى ابن مريم يُدفن معه)

وعن جبير بن مُطعم رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي[1] ، وأنا العاقب ، والعاقب الذي ليس بعده نبيٌّ » رواه الشيخان ، والترمذي والنسائي ، وغيرهم كما في (الدر المنثور) .

وروى الإمام أحمد ، والترمذي ، عن المطلب بن أبي وداعة رضي

---

(١) أي : على أثرى فهو أوّل مَنْ يُحشر صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، كما قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا » الحديث .

الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خيرهم ، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً ، وأنا خيركم نفساً »

وعن أبي موسى رضي الله عنه ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « أنا محمد وأحمد ، والمقفِّي[1] ، والحاشر ، ونبي التوبة ، ونبي الرحمة » رواه الإمام أحمد ، ومسلم كما في (الجامع الصغير) .

ويرحم الله تعالى القائل :

كـرِّرْ عليَّ حـديثهـم يـا حـادي فحـديثهـم يجلـو الفـؤاد الصـادي

ورضي الله تعالى عن القائل :

فيـا آل ليلـى ضيفكـم ونـزيلكـم بحيِّكـمُ يـا أكـرم العُـرب ضـارع
قِـراه جَمَـال لا جِمـال وإنـه بـرؤيـة ليلـى مُنيـة القلـب قـانـع

وعن القائل :

إنَّ بَيْتـاً أنـتَ سـاكنـه غَيـر محتـاج إلـى السُّـرُج
وَمـريضـاً أنـت عـائـده قـد أتـاه الله بـالفَـرَج
وَجْهـك المـأمـول حُجَّتنـا يَـوم تـأتـي النـاس بـالحجـج
شَـرعـكَ الـوضَّـاءُ مَنْهَجُنَـا خيـر منهـاج لمنتهـج

صلى الله العظيم عليك وسلَّم يا سيدنا يا محمد يا رسول الله ، وعلى آلك وصحبك ، وعلينا معهم ـ آمين .

---

(١) المقفِّي بتشديد الفاء وكسرها ـ أي : الذي هو آخر الأنبياء وخاتمهم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم
هو أحمد الحامدين لله رب العالمين

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

روى الإمام أحمد ، والبيهقي ، وغيرهما ، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » .

وروىٰ الإمام أحمد وغيره ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما كان أول بدء أمرك ؟ .

قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى بي ، ورأت أمي أنَّه خَرج منها نور أضاءت له قصور الشام » .

أي : رأت ذلك حين ولدته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، كما روى أبو نعيم وغيره ، عن أم سلمة ، عن السيدة آمنة رضي الله عنها أنها قالت : (لقد رأيت ليلة وضعه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم نُوراً أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها) . اهـ.

وروى ابن سعد من حديث جماعة منهم : عطاء وابن عباس رضي الله عنهما ، أن آمنة بنت وهب رضي الله عنها قالت : (لما فَصَل مني ـ تعني النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أي : لما ولدته ـ خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، ثم وقع صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم على الأرض

جاثياً على ركبتيه ، معتمداً على يديه ، ورفع رأسه إلى السماء) اهـ صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم[1] .

فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام ، التي دعا الله تعالى حين بنى البيت المعظم كما قال الله تعالى مخبراً عن ذلك : ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

وهو بشارة عيسى عليه السلام كما قال سبحانه وتعالى مخبراً : ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾ صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وروى أبو داود ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال : سمعت النجاشي صاحب الحبشة ـ أي : ملك الحبشة ـ رحمه الله تعالى يقول : (أشهد أنّ محمداً رسول الله ، وأنّه الذي بشَّر به عيسى عليه السلام ، ولولا ما أنا فيه من الملك ، وما تحمَّلتُ من أمور الناس ـ التي : لو تركها لوقعوا في فساد وفوضى ـ لأتيته حتى أحمل نعليه) أي : يكون خادماً للنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ملازماً له ، يحمل نعليه .

فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم مذكور في التوراة والإنجيل باسمه محمد ، وباسمه أحمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وروى الطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنَّ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « صفتي ـ أي : في التوراة والإنجيل ـ أحمد المتوكل ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ، يَجزي بالحسنة الحسنة ، ولا يُكافىء بالسيئة ، مولده بمكة ، ومُهاجَره طيبة ، وأمَّته الحمَّادون ، يأتزرون على أنصافهم ، ويُوضِّئون أطرافهم ، أناجيلهم ـ أي : مصاحفهم ـ في

---

(١) انظر ذلك في (المواهب اللدنية) وشرحها .

صدورهم ـ أي : يحفظون القرآن في صدورهم ـ يَصُفُّون للصلاة كما يصفُّون للقتال ، قُربانهم الذي يتقرَّبون به إليَّ ـ أي : إلى الله تعالى ـ دماؤهم ، رهبان بالليل ـ عابدون ساجدون ـ لُيوث بالنهار[1] » كذا في (الفتح الكبير) .

فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أحمد . أي : هو أحمد الحامدين لرب العالمين ، وإنَّ صيغ محامده صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لرب العالمين وثنائه عليه هي من جوامع الكلم ، وهي أنواع كثيرة وكبيرة جداً ، أذكر أطرافاً منها موجزة :

فمن تلك المحامد الجامعة ، ما جاء في حمده صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لربه حين يرفع من الركوع :

روى الإمام مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا رفع رأسه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من الركوع قال : « اللهم ربنا لك ملء السماوات ، وملء الأرض ، وملء ما شئت من شيء بعدُ ، أهل الثناء والمجد ، أَحقُّ ما قال العبد ، وكلُّنا لك عبد .

اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعتَ ، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ » .

وروى الترمذي وغيره ، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سمع الله لمن حمده ، ربنا ولك الحمد ملئ السماوات ، وملء الأرض ، وملءَ ما بينهما ، وملءَ ما شئتَ من شيء بعدُ » .

---

(١) الليوث : جمع ليث : وهو الشديد القوي ، وبه سمي الأسد ليثاً كما في (النهاية) .

فما ترك صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم موضع ذرة في الأرض والسماوات وما بينهما ، ولا فيما فوق السماوات من العوالم : عالم سدرة المُنتهى ، وعالم الجنة ، وعالم الكرسي ، وعالم العرش ، وما تحته من العوالم إلاّ وملأها صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بالحمد لله تعالى ، كما دل على ذلك قوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « وملء ما شئتَ من شيء بعدُ » فافهم ذلك ، فإذا فهمتَ هِمتَ ، وأيقنت أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو أحمد الحامدين لله رب العالمين .

وقد بين النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عظمة سعة عالم الكرسي وعظمة سعة عالم العرش العظيم .

جاء في الحديث ، عن أبي ذر رضي الله عنه ، أَنّه سأل النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن الكرسيّ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « يا أبا ذر ما السموات السبع ، والأرضون السبع ، عند الكرسي إلا كحلقة مُلقاة بأرض فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة »[1] .

فالسماوات والأرضون بالنسبة إلى عالم الكرسي وما وسعه من عوالم عظيمة كثيرة ؛ ومنها السماوات السبع والأرضون كحلقة ملقاة في فلاة ، وإن نسبة عالم الكرسي الواسع العظيم إلى سعة عالم العرش العظيم كحلقة في فلاة ، وإنّ عالم العرش العظيم هو محيط بعالم الكرسي ، وعوالم أخرى كبيرة وكثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى ، كما أن عالم الكرسي هو محيط بالسماوات السبع ، والأرضين السبع ؛ وغيرها من العوالم الكبرى

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى البيهقي في (الأسماء والصفات) وإلى ابن جرير ، وابن مَرْدُوْيَه ، وأبي الشيخ في (العظمة) . اهـ.

لا يعلمها إلا الله تعالى ، وفي هذا دليل على عظمة قدرته سبحانه وتعالى ، وعلى سعة علمه وحكمته جلَّ وعلا ، وأنه هُوَ الله رب العالمين واحد لا شريك له .

ومن محامده صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في التهجُّد الحديث الآتي :

روى الشيخان ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إذا قام من الليل يتهجَّد قال : « اللهم ربَّنا لك الحمد أنت قيّم السماوات والأرض ومَنْ فيهنَّ ـ وفي رواية النسائي : « أنت قَيّام[1] السماوات والأرض ومن فيهنَّ » ـ ولك الحمد أنت نُور السماوات والأرض وَمَن فيهنَّ ، ولك الحمد أنت مَلك السماوات والأرض وَمَن فيهنَّ ، ولك الحمد أنت الحقُّ ، وعدك الحقُّ ، ولقاؤك حقٌّ ، وقولك حقٌّ ، والجنة حقٌّ ، والنار حقٌّ ، والنبيُّون حقٌّ ، ومحمَّد حقٌّ ، والساعة حقٌّ .

اللهم لك أسلمت ، وبك آمنتُ ، وعليك توكَّلت ، وإليك أنبتُ ، وبك خاصمتُ ، وإليك حاكمتُ ، فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرْتُ ، وما أسررتُ وما أعلنت ، وما أنتَ أعلم به مني ؛ أنتَ المقدِّمُ ، وأنت المؤخِّر ، لا إلَه إلا أنت ، ولا إلَه غيرك ، ولا حول[2] ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم » .

ومن جوامع محامده وتسبيحه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما يأتي :

جاء في الحديث عن جويرية زوج النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

---

(١) القيوم والقيم والقيَّام كلها بمعنى واحد ، فهو سبحانه وتعالى الذي قامت به السماوات والأرض ومن فيهن ، وهو سبحانه وتعالى قيومها .

(٢) جاءت هذه الجملة في رواية النسائي كما في (جامع الأصول) .

ورضي الله عنها ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم خرج مِنْ عندها بُكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ـ أي : مسجد بيتها ـ ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة ـ أي : تسبح وتحمد الله تعالى ـ فقال لها صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ما زِلت على الحال التي فارقتك عليها » ؟ .

قالت : نعم .

فقال : « لقد قلت بعدك ـ أي : بعدما تركها ـ أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهنَّ ـ أي : رجحت وزادت عليهن ـ : سبحان الله وبحمده عدَدَ خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومِداد كلماته »[1] .

سيدنا محمد ﷺ هو صاحب لواء الحمد

وجميع النبيين تحت لوائه

صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين

جاء في الحديث ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدي لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبيٍّ يومئذ آدم فمن سواه ـ أي : بعده ـ إلا تحت لوائي ، وأنا أول شافع وأوّل مشفَّع ولا فخر » رواه الإمام أحمد ، والترمذي وابن ماجه[2] .

وروى الترمذي ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا خطيبهم إذا

---

(١) قال في (تيسير الوصول) : رواه الخمسة إلا البخاري .

(٢) كما في (الجامع الصغير) وقال الترمذي : حسن صحيح كما في (فيض القدير) .

وفدوا ـ أي : قدموا على ربهم ـ وأنا مُبَشِّرهم إذا أيِسُوا ، لواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر » .

وروى الدارمي[1] ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جلس ناس من أصحاب النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ينتظرونه ، فخرج صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون ، فتسمع حديثهم ، فإذا بعضهم يقول : عجباً إن الله تعالى اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليل الله .

وقال آخر : ماذا بأعجب مِن ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ .

وقال آخر : عيسى كلمة الله وروحه .

وقال آخر : وآدم اصطفاه الله تعالى .

فخرج عليهم رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وقال لهم : « قد سمعت كلامكم وعجبكم ، إنّ إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى نَجِيُّهُ وهو كذلك ، وعيسى روحه وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك .

أَلاَ وأنا حبيب الله تعالى ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر[2] ، وأنا أول شافع وأول مُشفَّع يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول مَنْ يُحرك بحلق الجنة ولا فخر ، فيفتح الله تعالى[3]

---

(١) ورواه أيضاً الترمذي ، وأبو نعيم مع شيء من التقديم والتأخير كما في (الخصائص الكبرى) .

(٢) تقدم ذكر هذه الأحاديث ، وقد ذكرتها هنا لمناسبة الموضوع ، ويصعب على بعض الناس الإحالة إلى ما تقدم .

(٣) أي : يأمر الله تعالى الخازن الموكَّل بذلك بأن يفتح باب الجنة ، لسيدنا محمد =

فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر ، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله تعالى ولا فخر » .

وقول بعض الصحابة رضي الله عنهم : عجباً إنّ الله اتخذ من خلقه خليلاً فإبراهيم خليل الله تعالى ، وهكذا قولهم : عجباً إلى آخر ما هناك ، في هذا تعظيم واستعظام لما أكرم الله تعالى به خليله وكليمه وعيسى وآدم على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، وأنَّ هذا فيه فضل من الله تعالى كبير ، ولا شك في ذلك كما قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « وهو كذلك » يعني : إنّ ذلك فضل من الله تعالى عظيم ، ثم يبين لهم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أن الله تعالى قد أعطاه وتفضل عليه بما هو فوق ذلك كله ، متحدثاً بنعمة الله تعالى ، فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حبيب الله الأكرم ، وهو حامل لواء الحمد تحته آدم فمن دونه ـ أي : جميع الأنبياء ـ وهو أكرم الأولين والآخرين على الله تعالى ، وهو هو إلى ما هنالك من الفضائل والمكرمات التي خصه الله تعالى بها ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وعلينا ـ آمين .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا ، وأنا شافعهم إذا احتُبِسُوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ، الكرامة والمفاتيح يومئذٍ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر ،

= صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قبل جميع الخلائق ، ولا يَفتح لأحد قبله ، كما جاء في (صحيح) مسلم قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن : مَنْ ؟ فأقول : محمد ، فيقول الخازن : بك أُمرتُ ـ أي : أمرني الله تعالى ـ أنْ لا أفتح لأحد قبلك » فالكل يدخلون من ورائه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون » رواه الدارمي[1]

فهو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بيده لواء الحمد .

قال الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى : وأضيف اللواء إلى الحمد الذي هو الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، لأنه منصبه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في الموقف ، وهو المقام المحمود المختصّ به ، قال : والعرف جارٍ بأن اللواء يكون مَع كبير القوم ـ أي : رئيسهم وسيدهم ـ ليُعرف مكانه ، إذ موضوعه أصَالة شُهرة الرئيس . اهـ.

ففي حمله لواء الحمد شُهْرة أنه رئيس العالمين ، وسيدهم أجمعين ، وإعلان كرامته العظمى وشرف سيادته العامَّة صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أبداً أبداً .

وقد ذكر بعض العارفين رضي الله عنه ، ونفعنا الله تعالى به وبأهل الله تعالى أجمعين ، وبيَّن أَنّ تسميته بلواء الحمد هو أنه ٱلْتَوَتْ ـ اجتمعت ـ فيه المحامد التي يُحمد بها رب العالمين ، فهو لواءٌ جامع لجميع المحامد الإلَهية التي يُحْمَد بها في ذلك العالم ، ولا يخرج عنه حمد حامد ، وإنما يأخذ منه كلّ حامدٍ حمده ، ليحمد به رب العالمين سبحانه وتعالى ، وإن الحمد لله تعالى لا يكون إلا بالأسماء الإلَهية ، فإنها بها يُثنىٰ على الله تعالى ، وبها يُحمد ، وإن جميع تلك الأسماء الإلَهية التي بها يحمده الحامدون ، ويثنون بها على ربهم سبحانه في ذلك العالم ، قد جمعها الله تعالى في لواء سيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فإلىٰ ظل لوائه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يأوون ، وعنه يأخذون صيغ حمدهم في ذلك

---

(١) ورواه الترمذي وأبو يعلى وغيرهم ، وقد أعدت ذكر هذه الأحاديث لمناسبة الموضوع .

العالم ، ولذلك عمَّ لواؤه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جميع الحامدين ، كما قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ما من نبيّ آدم فمن دونه إلا تحت لوائي » .

وإنّ أحمد الحامدين لرب العالمين هو سيدنا أحمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، الذي فتح الله تعالى ويفتح عليه مِنْ محامده وحسن الثناء عليه سبحانه ما لم يفتحه على أحد غيره ، كما جاء في أحاديث الشفاعة حيث قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فيفتح الله عليَّ مِنْ محامده وحسن الثناء عليه مَا لم يفتحه على أحد قبلي » ، وقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فأحمده بمحامد لا أعلمها الآن يُلهمنيها الله تعالى » .

جعلنا الله تعالى من جملة رفقائه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وجمعنا تحت لوائه ، وراية مجده ، ونفحنا الله تعالى بنفحاته ، وأفاض علينا من بركاته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وعلينا معهم أجمعين . آمين .

وما أحسن قول الشيخ العارف الكبير الشهير ، سيدي علي وفا في قصيدته الدالية ، يمدح فيها سيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم :

قطب النُّهى غوث العوالم كلها أعلى عليٍّ ساد أحمدُ مَنْ حَمِد
صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

* * *

القصيدة الدالية للشيخ العارف الكبير الشهير علي وفا نفعنا الله تعالى به
يمدح فيها الحبيب الأكرم والسيد المعظم
صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

سَكنَ الفُؤادَ[1] فعِشْ هنياً يا جسد ... ذاكَ النعيم هو المقيم إلى الأبد
أصبحتَ في كنف الحبيب وَمَن يكن جارُ الكريم فعيشه العيش الرَّغَد
عِشْ في أمان الله تحت لوائه ... لا خوف في هذا الجناب ولا نكد
لا تختشي فقراً وعندك بيت مَنْ ... كلُّ المُنى لك مِنَ أياديه مَدَد
رَبُّ الجمال ومرسل الجَدْوىٰ ومَنْ ... هُو في المحاسن كلها فرد أحد
قطب النُّهىٰ غوث العوام كلها ... أعلىٰ عليٍّ ساد أحمدُ مَنْ حَمِد
رُوح الوجود حياة مَنْ هو واجد[2] ... لَولاه ما تم الوجود لمن وَجد
عيسى وآدم والصدور جميعهم ... هُم أعين هو نُورها لمَّا ورد
لَو أبصر الشيطان طلعة نوره ... في وجه آدم كان أوَّلَ من سجد
أو لو رأى النمرود نور جماله[3] ... عَبَد الجَليلَ مع الخليل وما عَنَدْ[4]
لَكنْ جمال الله جَلَّ فلا يُرىٰ ... إلا بتخصيص من الله الصّمد
فابشر بمن سكن الجوانحَ منكَ يا ... أَنا قد مُلئت من المُنىٰ عيناً ويد
عَين الوفا معنى الصفا سِرُّ النَّدَى ... نُور الهدى رُوح النهى جَسَدُ الرَّشَد
هُو للصلاة من السلام المرتضىٰ ... الجامع المخصوص ما دام الأبد

صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وعلينا معهم أجمعين

---

(١) أي : سكن الحبيب الأكرم الفؤاد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

(٢) أي : هو صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم سبب لحياة مَن وَجدهم من الخلق أي : عَلِمهم موجودين منهم ، لأنه لولاه ما تم الوجود لمن وجد . اهـ (شرح المواهب) .

(٣) أي : في وجه الخليل على نبينا عليه الصلاة والسلام .

(٤) أي : وما خالف وردَّ الحق مع معرفته به كبراً .

شرح سيدي الوالد الكريم لهذه القصيدة الغرَّاء
وحبه لسماعها وإنشادها في مجالسه
وترغيبه وحثه للمنشدين على حفظها وإنشادها

قد شرح سيدي الوالد رحمه الله تعالى تلك القصيدة الغراء في دروسه في جامع الحموي شرحاً واسعاً مطولاً ، وأوضح ما فيها من الفضائل والخصائص التي خصَّ الله تعالى بها الحبيب الأكرم ، والرسول المعظم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وَبَيّن ذلك مفصلاً على منهج المحبين العارفين ، الغارفين من بحر سيد العالمين ، وإمام النبيين ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، واستغرق ذلك عدة دروس .

وذلك أَنّه كانت دروسه في جامع الحموي صباحاً كل يوم ما عدا الثلاثاء والجمعة ، ففي يوم السبت يقرأ من صحيح البخاري رواية خمساً وعشرين صحيفة ، وفي يوم الأحد من تفسير العلامة الخطيب الشربيني رحمه الله تعالى ـ الجزء الأول ، وفي يوم الاثنين صباحاً يقرأ من الفقه الحنفي الجزء الأول من (الدر المختار) ثم نقله إلى يوم الجمعة عقب صلاة الجمعة ، وفي يوم الأربعاء من الجزء الأول من شرح (المواهب اللدنية) للحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى ، فلمَّا مرَّ على تلك القصيدة في (المواهب) شرحها كما تقدم ، وفي يوم الخميس كان يقرأ من الجزء الأول من (شرح الطريقة المحمدية) للعلامة الكبير والعارف بالله تعالى الشهير ، الشيخ عبد الغني النابلسي نفعنا الله تعالى به آمين .

وكان سيدي الوالد رحمه الله تعالى يُثني على العلامة الكبير والعارف الشهير الشيخ عبد الغني النابلسي ، ويمدحه بسعة اطلاعه ، وتعمقه في العلوم وفي المعارف الإلٰهية على المستوى الخاص العالي ، مع التمسك التام بالشريعة المحمدية على الوجه الكامل ، ولذلك كان يقرأ شرحه على الطريقة المحمدية ، ويثني عليه ثناءً حسناً .

محبة سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى
لسماع المدائح النبوية المحمدية صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم
وإكرامه للمنشدين وتنشيط همتهم في ذلك

كان رحمه الله تعالى له ليلة في الأسبوع ـ وهي : ليلة الثلاثاء غالباً ـ يَسمُر فيها مع بعض إخوانه ، ويُحدثهم ، ويذكر لهم طَرفاً من القضايا التوحيدية ، والعرفانية ، مع أدلتها من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام والتحية ، حتى إذا انتهى من الموضوع الذي بحث فيه وأكمله أمر المَدَّاحين والمنشدين يُنشدون القصائد التي فيها مدح لسيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وذكر فضائله ومحاسنه ، وكانت مجالسه مع إخوانه لا تخلو من المداحين والمنشدين ، وهذا شأن المحبين كما قيل :

كـرر علـيَّ حـديثهـم يـا حـادي فحـديثهـم يجلـو الفـؤاد الصـادي

وكان رحمه الله تعالى يُكثر في مجالسه من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وكان يَحثُّ الناس على الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وكان رحمه الله تعالى يُكثر من صيغ الصلاة على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم بأنواع متعددة ، كما يكثر كثيراً من صيغة الصلاة المسمَّاة بالصيغة العظيمية المعلومة .

وكان رحمه الله تعالى يُكثر من قراءة (دلائل الخيرات) ويُرَغِّب فيها ، ويُحبب الناس بقراءتها ، ومنذ وعيت عنه قراءتها وكنت صغير السنّ دون البلوغ ، ألزمت نفسي قراءتها في كل يوم جمعة ، أبدأ فيها من أولها وقت الضحوة الصغرى يوم الجمعة ، حتى أُكمل قراءتها كلها بجميع

أحزابها ، وتبقى مدة قليلة لدخول وقت صلاة الجمعة ؛ فَأذهب إلى صلاة الجمعة ، وقد بَقيت على ذلك مدة طويلة ، والحمد لله رب العالمين ، ثم بعد ذلك صرت أقرأها على حسب أحزابها المرتبة على أيام الأسبوع .

ويرحم الله تعالى القائل :

إذا أنت أكثرتَ الصلاة على الذي صَلّى عليه الله في الآيات
وَجَعلتها وُرداً عليك مؤكداً لاَحتْ عليك دَلائل الخيرات

مواظبة سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى
على قراءة قصة المولد النبوي الشريف
وحضوره مجلس قراءة قصة المولد الشريف
وترغيبه في ذلك

كان سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى يقرأ في جامع الحموي قصة المولد النبوي الشريف ، للعلامة الكبير السيد محمد البرزنجي الحسيني ، وكان يقرأ ذلك بعد النصف من شهر شعبان قُبيل شهر رمضان ، وتتزاحم الناس على حضور قراءة المولد ، ويقرأه كله حسب أقسام التعطيرات ، وعند الختام يقرأ تعطيرة القيام ، ويقوم تعظيماً لسيد العالمين ، وإمام المرسلين ، وخاتم النبيين ، صلوات الله تعالىٰ وسلامه عليه وعلىٰ آله وأصحابه ، وأزواجه وأهل بيته ، وعلينا معهم أجمعين ، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم ـ آمين .

ثم بعد ذلك يقرؤون الصلاة الإبراهيمية جميعاً سبع مرات ، ثم عَشر مرات : لا إلَه إلا الله ، ثم بالاستغفار سبعين مرة ، ثم يختم سيدي الوالد رحمه الله تعالى بالدعاء ، وتوزع الحلوىٰ على الذين حضروا ، ويرشَّ عليهم ماء الزهر والحمد لله رب العالمين .

ولم تَفُتْنِيْ تلك المجالس التي كان والدي الكريم يقرأ فيها قصة المولد أبداً .

وأما في شهر ربيع الأول شهر المولد الشريف ، فكان هناك جماعة من أهل التقوى والصلاح جيران جامع بانقوسا ، يستأذنون من سَيّدي الوالد رحمه الله تعالى أن يسمح لهم بإقامة حفلة قراءة قصة المولد النبوي الشريف في وقت درسه بعد العصر من يوم الجمعة ، اغتناماً لكثرة الناس الذين يحضرون وقت الدرس ، فكان والدي رحمه الله يأذن لهم ، ويحضر حفل المولد الشريف مع بعض إخوانه ، وكنت أحضر معه ، وينوي في ذلك مشاركتهم في إقامة حفل المولد الشريف ، ونيل الثواب والأجر ، ويقصد بذلك تنشيط همم المسلمين ، وترغيبهم في إقامة حفلات لقراءة قصة المولد النبوي الشريف ، مع توصيتهم بالإصغاء والأدب ، والتعظيم لسيد العالمين ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه النبيين ، وآله وآلهم أجمعين ، وعلينا معهم ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته ـ آمين .

ولما وكَّلَني سيدي الوالد رحمه الله تعالى بالتدريس عنه ، اتبعت طريقته في ذلك ، وكنت أنا أقرأ قصة المولد النبوي الشريف في جامع الحموي ، وفي جامع بانقوسا ، وفي الجامع الأموي الكبير ، والحمد لله رب العالمين .

ومن المعلوم أن في ذلك أجراً كبيراً ، وثواباً عظيماً ، وإنارة للقلوب ، ومغفرة للذنوب ، واستنزال الرحمة والبركة من الله تعالى ، فإنّ المجلس الذي تقرأ فيه قصة المولد النبوي الشريف يشتمل على مجموعة من الخيرات والقربات إلى الله تعالى :

فيه تلاوة القرآن الكريم ، وصلوات على النبي صلّىٰ الله عليه وآله

وسلَّم ، وفيه ذكر بعض فضائله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأناشيد فيها مَدح وثناء عليه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وفيه ابتهالات إلى الله تعالى بالدعاء ، والاستغفار ، ونحو ذلك ، فهو مجلس جامع لأنواع مِنَ الخيرات والطاعات والبركات .

روى الإمام البزار ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنه قال : « إنّ لله سيَّارةً من الملائكة ، يطلبون حِلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حَفَّوا بهم ، ثم يقفون وأيديهم إلى السماء إلى رب العزة تبارك وتعالى ، فيقولون : ربَّنا أتينا على عبادٍ من عبادك ، يعظِّمون آلاءك ، ويتلون كتابك ، ويُصلُّون على نبيك محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ويسألونك لآخرتهم ودنياهم ، فيقول الله تبارك وتعالى : غَشُّوهم رحمتي ، فهم الجلساء لا يَشقى بهم جليسهم » كذا في (ترغيب) الحافظ المنذري رحمه الله تعالى .

وقد حذَّر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم المسلمين من الجلوس في مجلس لا يَذكرون الله تعالى فيه ، ولا يُصلون عليه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم :

فقد جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « ما جلس قوم مجلساً : لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا فيه على نبيهم ؛ إلاّ كان عليهم تِرة[1] ، فإن شاء ـ الله تعالى ـ عذَّبهم ، وإن شاء غفر لهم » .

قال الحافظ المنذري : رواه أبو داود والترمذي واللفظ له وقال : حديث حسن ، قال : ورواه بهذا اللفظ ابن أبي الدنيا والبيهقي . اهـ.

---

(١) التِّرة : بكسر التاء وتخفيف الراء هي : الذنب والنقص القبيح .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ما قعد قوم مقعداً : لم يذكروا الله عز وجل فيه ، ويُصلون على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ؛ إلاّ كان عليهم حسرة يوم القيامة ؛ وإن دخلوا الجنة للثواب » أي : لأنهم حَرَموا أنفسهم ثواباً عظيماً .

قال في (ترغيب) المنذري : رواه أحمد بإسناد صحيح ، وابن حبان في (صحيحه) والحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري . اهـ

وقد بيَّن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أنّ الصلاة عليه تبلغه فوراً ، وأنّه يُصلي على مَنْ يصلي عليه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فور بلوغ الصلاة عليه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

روى الطبراني في (الكبير) بإسناد حسن ، عن سيدنا الحسن بن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنهما ، أنَّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « حيثما كنتم فصلُّوا عليَّ فإنَّ صلاتكم تبلغني » أي : فوراً انظر (ترغيب) المنذري .

وروى الطبراني ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « مَنْ صَلَّى عليَّ بلغتني صلاته وصَلَّيتُ عليه ؛ وَكُتب له سوىٰ ذلك عشر حسنات » أي : والله تعالى يُضاعف لمن يشاء . اهـ .

فالذي يُصَلِّي على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يُصلّي عليه الله تعالى ، وَيُصَلِّي عليه رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وتُصَلِّي عليه ملائكة الله تعالى ، وَتُكتب لَهُ عَشْر حسنات ، وتُمحىٰ عنه عَشرُ سَيِّئات ، وَتُرفع له عشر درجات ، إلى ما هنالك من الأجر الكبير ، والثواب العظيم ، كما بينت ذلك مُفصلاً مع الأدلة في كتاب (الصلاة على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم) فارجع إليه تجد ما يسرك .

فائدة بكل خير عائدة :

ذكر السيد الشيخ العلامة أحمد الصاوي رحمه الله تعالى في (شرحه على صلوات القطب الدردير) أنَّ سبب تأليف (دلائل الخيرات) هو أنّ مؤلفها الإمام الشيخ مُحمد بن سليمان الجزولي رحمه الله تعالى ، حضره وقت الصلاة ، فقام يتوضأ فلم يَجد ما يُخرج به الماء مِنَ البئر ، فبينما هو كذلك نظرت إليه صَبِيَّة مِنْ مَكانٍ عالٍ فقالت له : مَن أنت ؟ فأخبرها .

فقالت له : أنت الرجل الذي يُثنىٰ عليك بالخير ، وتتحيَّر فيما تخرج به الماء من البئر ، وَبَصَقت في البئر ففاض ماؤها على وجه الأرض .

فقال الشيخ بعد أن فرغ من وضوئه : أقسمتُ عليك بمَ نِلت هذه المرتبة .

فقالت : بكثرة الصلاة على من كان إذا مشى في البَرِّ الأقفر تعلقت الوحوش بأذياله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فحلف يميناً أن يؤلف كتاباً في الصلاة على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم اهـ من كتاب (جامع كرامات الأولياء) للعلامة الكبير ، والعارف بالله تعالى ، الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله تعالى ونفعنا به وبجميع العلماء العاملين ـ آمين .

* * *

ومما أكرم الله تعالى به
سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالىٰ

إنَّ الله تعالى أكرم سيدي الوالد رحمه الله تعالى بسمعه وبصره ، حتى آخر عمرُه ، وقد عُمِّر مائة سنة[1] ، أو ما يقاربها ، ولم يَحتج إلى مِنظار ، ولا إلى ما يقوي سمعه ، بل كان يقرأ ويكتب كما هو المعتاد ، وفي هذا إكرام من الله تعالىٰ الذي أطال عمره في طاعة الله تعالى ، ونشر تعاليم الكتاب والسنة ، وبيان قضايا وأحكام الدين للأمة ، فجزاه الله تعالى خيراً .

ولم يقف عن إلقاء الدروس حتى بلغ من العمر أربعاً وتسعين سنة ، وذلك بسبب تعب رُكبه وضعفها ، كما هو في كثير من الناس إذا كبرت سنهم .

وقد كان رحمه الله تعالى له عادة بعدما ينتهي درسه في الجامع الأموي

---

(١) وقد وردت الأحاديث النبوية في فضل المعمّرين في الإسلام ـ أي : الذين طال عمرهم في الإسلام ـ ولهم الأجر العظيم :
روى الإمام أحمد برواة الصحيح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ألا أنبئكم بخيركم » ؟ قالوا : نعم .
قال : « خياركم أطولكم أعماراً وأحسنكم أعمالاً » .
وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ألا أنبئكم بخياركم » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .
قال : « خياركم أطولكم أعماراً إذا سَدَّدوا » رواه أبو يعلى بإسناد حسن . اهـ.
وعن عبد لله بن بسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » رواه الترمذي وقال : حديث حسن . اهـ .

الكبير ، كان يجلس في غرفة في رُواق الجامع ، ويجلس معه إخوانه الخاصة ، وأنا معه ، ففي بعض مجالسه جرى حديث الأعمار .

فقال سيدي الوالد رحمه الله تعالى : وقد بلغتُ الآن مِنَ العمر خمساً وثمانين سنة والحمد لله . اهـ .

ولم يزل يُتابع تدريسه بنشاط وهمة ، حتى بلغ أربعاً وتسعين سنة ، وَوكل إليَّ دُروسه والحمد لله .

وقد دعا لي بالتوفيق ، وأمدَّني بتوجيهاته ، ولولا أني كنت حافظاً للقرآن العظيم ، وحافظاً جملة واسعة ، وعدداً كبيراً من أحاديث سيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم تَحتوي على مجلدات ، لولا ذلك لكان قيامي بالتدريس عن سيدي الوالد رحمه الله تعالى صعباً عليَّ جداً ، ولكن الله تعالى أعدَّ وأمدَّ والحمد لله رب العالمين .

ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ

وقد أعطى الله تعالى سيدي الوالد رحمه الله تعالى قُوَّة الحفظ وضبط نصوص الكتاب والسنة النبوية ، فكان رحمه الله تعالى حاضر المحفوظ من القرآن والأحاديث النبوية ، لا يتوقف فيها ، ولا يتلعثم ، ويلقيها في دروسه متسلسلة ومتتابعة ، ويأتي بالأحاديث النبوية مع بيان رواتها ومخرِّجها ، وكان له اهتمام كبير واهتمام شديد بالاطلاع على كتب الأحاديث النبوية بأنواعها : الجوامع ، والسنن ، والمسانيد ، والمعاجم ، والأجزاء ، إلى ما هنالك ، فيورد في تقرير دروسه جملةً واسعة من الأحاديث النبوية ، في مقام الحجَّة والاستدلال .

ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد رحمه الله تعالى

وقد أعطاه الله تعالى رحمه الله تعالى فراسة صادقة ، فإذا سأله سائل

عن بعض المسائل العلمية ، أو القضايا العرفانية ، عرف المقصود مِنَ السائل ، فإنْ كان سُؤاله صادراً عن صدق نية أجابه وأفاده ، وإن كان غير ذلك أعرض عنه وجفاه ، وربما زجره ، وذلك حين يَعلم خداعه ومكره .

كما أنه رحمه الله تعالى ينظر إلى الإنسان فيعرفه :

روى الإمام الترمذي وغيره ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ أي : المتفرسين .

وجاء في رواية ابن جرير وغيره ، عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى ، وينطق بتوفيق الله تعالى » .

ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد رحمه الله تعالى

إنَّ الله قد أعطاه قوة في إلقاء الدروس ، وتقرير الأبحاث العلمية المتسلسلة ، مع الأدلة من الكتاب والسنة ، على وجه التفصيل والبيان الكافي ، والإيضاح الشافي .

وكان رحمه الله تعالى لا يشعر بتعب ولا ملل مهما أطال الدرس ، وطالت الأبحاث والمسائل العلمية ، حتى إنه كان يقول : أنا لا أتعب في تقرير القضايا العلمية ، ولا في إلقاء الدروس الدينية . والحمد لله رب العالمين .

وكانت دروسه تستغرق الساعة وربع الساعة ، وأحياناً تستغرق الساعة ونصف الساعة ، وقد استغرق بعض دروسه في الجامع الأموي الكبير أيام الصيف ساعتين ونصف الساعة ، وكان موضوع بحثه وقتئذٍ في محبة الله تعالى ، وفي صفات المحبين لله تعالى ، وأحوالهم وآدابهم ،

وأن المحبة لله تعالى يَجب أن تكون فوق كل محبة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ الآية .

فحب المؤمنين لله تعالى يجب أن يكون هو الحب الأشدُّ الذي ينطوي فيه العشق ، وما هو أقوى مِن العشق ، وكان يبين أنّ علامة المحبة الصادقة لله عز وجل هي الاتباع الكامل لسيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ويستدل على ذلك بقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

ففي هذه الآية الكريمة يُبين الله تعالى لعباده علامة محبتهم الصادقة هي : اتباع النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، كما بين سبحانه وتعالى في هذه الآية نتيجة وكرامة محبته الصادقة له سبحانه ، هي أنه هو يحبهم ، ويغفر لهم ؛ إذا صدقوا في محبتهم له ، وذلك باتباع حبيبه الأكرم سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وكما يجب على المؤمنين أن يتَّبعوه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ؛ يجب عليهم أيضاً أنْ يحبوه فوق محبتهم لأنفسهم ، وآبائهم وأمهاتهم ، وما هنالك كما تقدم ذكر الأدلة من الأحاديث الواردة في ذلك .

وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة تهديد أكيد ، ووعيد شديد لمن لَم يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، جاء في الحديث المتفق عليه ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ثلاث مَنْ

كُنَّ فيه وَجَدَ بِهِنَّ طَعْم الإيمان : مَنْ كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحبَّ عبداً لا يُحبه إلا لله ، وَمَن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه كما يكره أن يلقىٰ في النار » كذا في (التيسير) .

ومن تقرير سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى ، حول الآية الكريمة المتقدمة ، وهي قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أنَّ هذه الآية الكريمة فيها البيان والإعلان مِنَ الله تعالى الملك الديَّان : أَنّ محبة العبد لربه إنما تكون صادقة ومقبولة ؛ إذا كان المحب مُتبعاً لرسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأما إذا لم يتبع رسول الله سيدنا محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فدعواه محبة الله تعالى هي كاذبة مردودة ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى ﴾ .

فإذا تحقق العبد باتباع النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقد صدق في محبته لله تعالى ، فهو محب لله تعالى ، وبهذا يتفضل الله تعالى فيرفعه إلى درجة المحبوبية ، فيحبه الله تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وفي هذا فضل عظيم ، وأجر من الله تعالى كبير .

ومن المعلوم أَنّ محبة الله تعالى لعبده المؤمن تَفْتَح لَه أبواباً من الخير الإلَهي ، وتمنحه أنواعاً مِن الفضائل والمكرمات ، ورفعة الدرجات ، وعلوُّ المقامات .

فمن ذلك أن الله تعالى يُعلن محبته لذلك العبد المحبوب في الملأ الأعلى ، ويأمرهم أن يحبوه فيحبوه ، ثم تنزل المحبة في أهل الأرض كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ ، وقد بين النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هذه الآية الكريمة ، فإنه

صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو صاحب البيان عن القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ الآية الكريمة .

جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إن الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أحب فلاناً فأحبَّه ؛ قال : فيحبه جبريل .

قال : ثم ينادي في أهل السماء إنّ الله تعالى يُحب فلاناً فأحبوه ؛ فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » ـ أي : فيحبه المؤمنون في الأرض ـ .

« وإن الله تعالى إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ؛ قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في السماء إن الله تعالى يُبغض فلاناً فأبغضوه ؛ قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض »[1] .

وروى الإمام أحمد ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنّ المِقَةَ ـ أي : المحبة ـ من الله تعالى ، والصيت من السماء ، فإذا أحبَّ الله تعالى عبداً قال لجبريل عليه السلام : إني أحب فلاناً .

فينادي جبريل : إنّ ربكم يُحب فلاناً فأحبوه ، فتنزل له المحبة في الأرض .

وإذا أبغض عبداً قال لجبريل : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فينادي جبريل : إنّ ربكم يُبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيجري له البغض في الأرض » .

---

(١) رواه الإمام أحمد بهذا اللفظ .

وروى الإمام أحمد أيضاً ، عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « إن العبد ليلتمس مرضاة الله عز وجل ، فلا يزال كذلك ، فيقول الله عز وجل لجبريل : إنّ فلاناً عبدي يلتمس أن يُرضيني ، أَلاَ وإن رحمتي عليه ، فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ، ويقولها حملة العرش ، ويقولها مَنْ حولهم ، حتى يقولها أهل السماوات السبع ، ثم يَهبط إلى الأرض » .

ورواه الإمام مسلم في كتاب (البر والصلة والأداب) وهذا نصه :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنّ الله إذا أحبَّ عبداً دَعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبَّه ؛ فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء فيقول : إنّ الله يُحب فلاناً فأحبوه ؛ فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض .

وإذا أبغض ـ أي : أبغض الله تعالى ـ عبداً دعا جبريل فيقول : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إنَّ الله تعالى يُبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضونه ، ثم توضع له البغضاء في الأرض » .

وروى الإمام البخاري في كتاب (التوحيد) من صحيحه نحو هذا الحديث .

وجاء في رواية الترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل فقال له : إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء : إنَّ الله يُحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[1] » .

ومن شرف المحبة الإيمانية وفضائلها أنّ المرء مَعَ مَنْ أحبّ :

روى الإمام مُسلم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أَنّ أعرابياً قال لرسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : متى الساعة ؟ .

فقال له رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ما أعددتَ لها » ؟

قال : حبَّ الله ورسوله .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنتَ مع مَنْ أحببتَ » .

وجاء في رواية لمسلم أيضاً ، عن أنس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال : يا رسول الله متى الساعة ؟ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « وما أعددتَ للساعة » ؟

قال : حبّ الله ورسوله .

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فأنت مَعَ من أحببتَ » .

قال أنس رضي الله عنه : فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشدَّ مِن قول النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فإنك مَعَ مَن أحببتَ » .

قال أنس رضي الله عنه : (فأنا أحب الله ورسوله ، وأبا بكر وعمر ، فأرجو أن أكون معهم ، وإنْ لم أعمل بأعمالهم) .

ورواه البخاري ولكن بلفظ (وأرجو أن أكون معهم بِحُبِّي إياهم) .

وجاء في رواية لمسلم أيضاً ، عن أنس رضي الله عنه قال : بينا أنا ورسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم خارجين من المسجد ، فلقينا رجلاً

---

(١) انظر (جامع الأصول) في بحث المحبة .

عند سُدَّة المسجد ، فقال : يا رسول الله مَتى الساعة ؟ .

فقال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ما أعددتَ لها » ؟

قال ـ أنس ـ : فكأن الرجل استكان ، ثم قال : يا رسول الله ما أعددت لها كبير ـ أي : كثير ـ صلاة ولا صيام ولا صدقة[1] ، ولكني أحب الله ورسوله .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فأنت مع مَن أحببت » .

وروى الإمام مسلم أيضاً ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فقال : يا رسول الله كيف تَرى في رجل أحبَّ قوماً ولمَّا يلحق بهم[2] .

فقال له رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « المرء مَعَ من أحب » .

وروى أبو داود ، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : يا رسول الله الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل بعملهم .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنت يا أبا ذر مع من أحببتَ » .

قال : فإني أحب الله ورسوله .

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فإنك مَعَ مَن أحببتَ » .

فأعادها أبو ذر فأعادها رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

ورواه الترمذي ، عن أنس رضي الله عنه قال : رأيت أصحاب رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيء

---

(١) أي : ما عنده كثرة نوافل .

(٢) أي : لم يعمل بمثل أعمالهم ، بل هو أقل عملاً منهم .

أشد منه ، قال رجال : يا رسول الله الرجل يحب الرجل على العمل مِنَ الخير يعمل به ؛ ولا يعمل بمثله .

فقال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « المرء مع من أحبَّ » .

ففي هذه الأحاديث النبوية بُشرى عظيمة ، وفضيلة كبيرة ، تُوجب الفرح والسرور ، وهي أن المحبة الصادقة تُلحق المُحب بالمحبوب ، وتجعله مَعه وإن لم يعمل مثل المحبوب ، فإنّ المحبة هي من أعمال القلوب ، لها أثرها الكبير ، فمن أحبَّ الصالحين جَعله الله تعالى معهم ، وحشره معهم .

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ثلاث هنَّ حقٌّ : لا يجعل الله تعالى من له سهم في الإسلام كمن لا سهم له ، ولا يتولَّى اللهُ عبداً فَيُوليه غيره ـ أي : بل إذا تولى عبده حفظه ولا يُسلمه لغيره ـ ولا يُحِبُّ رَجُلٌ قوماً إلا حشر معهم »[1] .

وروى الإمام أحمد بإسناد جيد ، عن أم المؤمنين السيدة عائشة الصِّدِّيقة بنت الصدِّيق رضي الله عنها ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « ثلاثة أحلف عليهن : **لا يجعل الله** مَنْ له سهم في الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهمُ الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، **ولا يتولَّى اللهُ** عبداً في الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، **ولا يُحِبُّ** رجل قوماً إلا جعله الله تعالى معهم » .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الطبراني في (الصغير والأوسط) بإسناد جيد ، ورواه في (الكبير) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وقد ذكرت هذا الحديث في عدة مناسبات كما هو عادتي في رواية الحديث الشريف ، لأن الإحالة على ما تقدم ذكره فيها صعوبة على بعض الناس .

فعليك يا أخي المؤمن وأختي المؤمنة بمحبة العلماء العاملين ، وعباد الله الصالحين والصالحات ، فإنها تنفع صاحبها ، وإياك ومحبة الفاسدين والفاسقين ، فإنها تُضر صاحبها .

ويرحم الله تعالى القائل :

إذا كنتَ في باب النبي فلا تخف ... وإن عارضتك الجنُّ يا خلُّ والإنس
تعـرَّف لأقـوام يـدينـون حُبَّـه ... وباعِد أُناساً قد تخبَّطهم مَسُّ
فـإنَّ مُحـب الحـق يَـأْوي لأهلـه ... بلا رِيبة والجنس يألفه الجنس

من علامة المحبة الصادقة لله تعالى : أن تُحب لله تعالى ، وأن تبغض لأجل الله تعالى .

إعلم أَنّ مِنْ واجب الإيمان بالله تعالى ومحبته الصادقة ؛ أن تحب ما يُحبه الله تعالى، وأن تبغض وتكره ما يبغضه الله تعالى لأجل الله تعالى.

روى أبو داود وغيره ، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أَنّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « مَنْ أحبَّ لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ؛ فقد استكمل الإيمان » .

وروى أبو داود أيضاً ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أفضل الأعمال : الحبُّ في الله والبغض في الله » .

وروى الإمام أحمد ، عن معاذ بن أنس رضي الله عنه ، أنّه سأل رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عن أفضل الإيمان .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أَنْ تُحب لله وَأن تبغض لله ـ أي : لأجل الله تعالى ـ وتُعمل لسانك في ذكر الله تعالى » .

قال : وماذا يا رسول الله .

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «وأن تحب للناس ما تُحب لنفسك ،

وتكره لهم ما تكره لنفسك » .

وروى الإمام مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أنّ رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى ، فَأَرصد الله على مدرجته ـ أي : طريقه ـ مَلَكاً ، فلما أتىٰ عليه قال له ـ المَلَك ـ : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية .

قال : هل لك عليه مِنْ نعمة تربُّها ـ أي : تقوم بها وتسعى في صلاحها ـ .

فقال الرجل : لا . غير أني أحبه في الله تعالى .

قال له ـ المَلَك ـ : فإني رسول الله إليكَ ، إنّ الله قد أحبَّك كما أحببته فيه » .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره » رواه الترمذي وحسنه .

وروى مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنّ الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابُّون بجلالي ، اليوم أُظلُّهم في ظلِّي يوم لا ظلَّ إلا ظلِّي » .

اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين .

وروى الإمام مالك ، عن معاذ رضي الله عنه ، عن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « يقول الله تبارك وتعالى : وجبت محبتي للمتحابين فيَّ ، وللمتجالسين فيَّ ، وللمتزاورين فيَّ ، وللمتباذِلين فيَّ » .

والمتزاورون في الله تعالى : هم الذين يزور بعضهم بعضاً في الله تعالى ، ابتغاء رحمة الله تعالى ورضوانه .

المحبة الصادقة لرسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم توجب محبة أصحابه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم

جاء في الحديث ، عن عبد الله بن مُغَفَّل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « اللهَ اللهَ في أصحابي[1] ، لا تتخذوهم غرضاً[2] بعدي ، فمن أحبَّهم فبحبي أحبَّهم ، ومَن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومَنْ آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، وَمَن آذى الله يُوشك أن يأخذه » .

قال العلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني في (الإصابة) : رواه الترمذي ، وابن حبان في (صحيحه) ورمز الحافظ السيوطي في (الجامع الصغير) لحسنه . اهـ.

فقوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فمن أَحبهم فبحبي أَحبهم » معناه : فبسبب حبهم إياي أحبهم ، أو المراد : بسبب حبي إيَّاهم أحبهم ـ أي : إنّما أحبهم لحبهم إياي ، أو لحبي إياهم ، والمعنيان متلازمان ـ.

وأما قوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ومَنْ أبغضهم فببغضي » أي : بسبب بغضه إياي « أبغضهم » يعني إنما أبغضهم لبغضه إياي صلّىٰ الله

---

(١) قال الشارح المناوي في معنى ذلك : اتقوا الله في حق أصحابي ، ولا تلمزوهم بسوء، أو المراد اذكروا الله تعالى فيهم ، وفي تعظيمهم وتوقيرهم ، وفي تكرير اسم الجلالة إيذان بمزيد الحث على الكف عن التعرض لهم بما فيه نقص . اهـ . بالمعنى .

(٢) الغرض هو الهدف أي : لا تتخذوهم هَدفاً ترمونهم بقبيح الكلام كما يُرمى الهَدَف بالسهام .

عليه وآله وسلَّم . اهـ كلام العلامة المناوي رحمه الله تعالى .

ورواه الإمام أحمد في (المسند) ولفظه :

عن عبد الله بن مُغَفَّل المزني قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبَّهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومَن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومَنْ آذى الله أوشك أن يأخذه » .

فقد بَيّن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أَنَّ محبة أصحابه رضي الله عنهم هي دَليل على صدق محبته ، وحذَّر وأنذر ؛ وهدَّد وأوعد ؛ مِنْ بغضهم وإيذائهم ، وسبِّهم والاستهانة بهم .

روىٰ الشيخان واللفظ لمسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « لا تسبُّوا أصحابي لا تسبُّوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لَوْ أَنَّ أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ؛ ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه » .

قال في (جامع الأصول) : المُدُّ ربع الصاع ، والنصيف : نصف المُدّ ، والتقدير : ما بلغ هذا القدر اليسير من فضلهم ولا نصيفه . اهـ.

وفي هذا دليل على فضلهم عند الله تعالى ، وفضل أعمالهم ، ومضاعفة أجورهم ، وعلو مقامهم عند الله تعالى ، فإنهم خير القرون .

روى الشيخان وأصحاب السنن ، عن عمران بن حصين رضي الله عنه ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ـ قال عمران : فلا أدرى أذكر بعد قرنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قرنين أو ثلاثة ـ ثُم إنّ بعدهم قوماً يَشْهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، ويَنذرون ولا يوفون ، ويظهر

فيهم السِّمن » أي : التوسع في المآكل والمشارب ، والاستكثار من أموال الدنيا وحُطامها ومفاخرها .

قال في (جامع الأصول) : وفي رواية للترمذي ، قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « خير الناس قرني ـ أراد به أصحابه ـ ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يأتي مِنْ بعدهم قوم يتسمَّنون ، ويحبون السِّمَن ، يُعطون الشهادة قبل أن يُسألوا » .

قال : وفي رواية أبي داود ، قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « خير أمتي القرن الذي بُعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ـ والله أعلم أذكر الثالث أم لا ـ ثم يَظهر قوم يَشهدون ولا يُستشهدون ، ويَنذرون ولا يوفون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، ويفشو فيهم السِّمن » .

قال : وفي رواية النسائي : « خيركم قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ـ فلا أدري أذكر مرتين أو ثلاثاً ـ الحديث .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته » رواه الشيخان والترمذي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « خير أمتي القرن الذي بُعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ـ والله أعلم أذكر الثالث أم لا ـ قال : « ثم يخلف قوم يُحبون السِّمانة ، يَشهدون قبل أن يُستشهدوا » رواه مسلم .

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : سأل رجل النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أيّ الناس خير ؟ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « القرن الذي أنا فيه ، ثم الثاني ، ثم الثالث » رواه مسلم كما في (جامع الأصول) .

وروى الترمذي ، عن بُريدة رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلاَّ بُعث لهم نوراً وقائداً يوم القيامة » .

فما أعظم أجر أصحاب رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم عند الله تعالى ، وما أكرمهم على الله تعالى ، رضي الله عنهم وعنا بهم ـ آمين .

* * *

الإيمان الصادق
يوجب على كل مؤمن مَحَبّة كُلِّ مؤمن

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لما ذكر الله تعالى صفات المنافقين الذين أخفوا كفرهم في نفق قلوبهم ، وأبطنوا الخبث والفساد ، ذكر الله تعالىٰ بعد ذلك صفات المؤمنين والمؤمنات الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان بالله ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وبمحبة الله ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فهم أولياء لبعضهم ـ أي : متحابون بينهم ـ ومتناصرون ومتناصحون ، يحبون الخير والصلاح والنجاح لكل مؤمن ومؤمنة ، كما يحبون ذلك لأنفسهم .

روى الشيخان ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « مثل المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم : مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عُضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّىٰ » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا ، أَلاَ أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم »[1] .

---

(١) قال في (تيسير الوصول) : رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

وعن أبي موسى رضي الله عنه ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشدُّ بعضه بعضاً » متفق عليه .

وروى الترمذي وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « الدين النصيحة » .

قالوا : لِمَنْ يا رسول الله ؟ .

فقال : « لله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم ، المسلم أخو المسلم : لا يخذله ، ولا يكذبه ولا يظلمه ، إنّ أحدكم مِرآة أخيه فإن رأى به أذى فليُمطه عنه » أي : يزيله عنه[1] .

وفي هذه الأحاديث الشريفة المتقدمة ، بيانات للحقوق الإيمانية بين المؤمنين ، وبين المؤمنات ، وهذه الحقوق الإيمانية هي مُوجب الإخوة الإيمانية بينهم ، التي عقدها الله تعالى بينهم ، وذكر ذلك وأعلنها في كتابه فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فالذي عقد الأُخوة بين جميع المؤمنين هو الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى سوف يسألهم جميعاً عن حُقوق الأُخوَّة التي عقدها الله تعالى بينهم .

وقد بَيَّن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حقوق تلك الأخوة ، فإنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو صاحب البيان عن القرآن الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

روى الشيخان وغيرهما ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وفي رواية النسائي : « من الخير » أي : يُحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير .

---

(١) كذا في (تيسير الوصول) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أَمِنَه الناس على دِمائهم وأموالهم » رواه الترمذي والنسائي .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « المسلم مَن سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر مَنْ هَجر ما نهى الله عنه » رواه الشيخان وغيرهما كما في (تيسير الوصول) .

تنبيه النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلى إكرام ذي الشيبة المسلم وتوقير الكبير والرحمة بالصغير

روى أبو داود عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إنّ مِنْ إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة ، وحامل القرآن : غير الغالي فِيه ولا الجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المقسط » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ما أكرم شابٌّ شيخاً لِسِنِّه إلاّ قيَّض الله تعالى له مَنْ يُكرمه عند سنِّه » أي : يهيّىء الله تعالى لَهُ مَنْ يُكرمه إذا كبر وصار شيخاً مُسناً . رواه الترمذي .

وروى الإمام الترمذي ، عن أنس رضي الله عنه قال : جاء شيخ ـ أي : رجل كبير ـ يريد النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فأبطأ القوم أن يُوسِّعوا له ، فقال النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ليس مِنّا مَنْ لم يرحم صغيرنا ، وَيُوَقِّر كبيرنا » .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويعرف شرف كبيرنا»[١] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لَيس منا مَنْ لم يرحم صغيرنا ، وَيُوقِّر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف ، وينه عن المنكر »[٢] .

وعن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « ليس مِنّا مَنْ لم يُجلَّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لِعَالِمنا حقَّه »[٣] .

فأداء الحقوق الأدبية ، وحفظ المراتب ، والقيام بواجباتها ، ذلك كله مِن مبادىء هذا الدين الإسلامي القويم ، ومقاصد الشريعة ، وسوف يُسأل الإنسان عنها ، ويحاسب عليها .

روى مسلم ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لتؤدّنَّ الحقوق يوم القيامة لأهلها ، حتى يُقاد للشاة الجلحاء ـ أي : لا قرن لها ـ من الشاة القرناء تنطحها » أي : ذات القرون التي نطحت بقرونها الجلحاء .

فيجرى القصاص وأداء الحقوق بين بني الإنسان ، ويَجري أيضاً بين الحيوانات : البهائم والطيور وما هنالك .

ومن جملة الحقوق بين بني الإنسان : حقوق الأموال ، وحقوق

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، والحاكم كما في (الجامع الصغير) رامزاً لصحته .

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وهو حسن .

(٣) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الإمام أحمد ، والحاكم رامزاً لحسنه ، وقال العلامة المناوي : ورواه الطبراني ، وقال الهيثمي : سنده حسن . اهـ

الدماء ، وحقوق الأعراض ، فمن طَعَن ، أوْ لَعَنْ ، أَوْ سبَّ ، أو احْتقر ، أوْ سخر أو تَكبَّر ، أو انتقص رجلاً أو امرأة ، فيَجب عليه أن يستسمح من صاحب الحق ، ويطلب العفو عما صدر منه في حق ذلك الرجل أو المرأة ، ويَدخل في ذلك الغيبة والنميمة وما وراء ذلك .

روى البخاري ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « منْ كانت عنده مظلمة لأخيه ـ أي : المسلم ـ مِنْ عرضه ، أو شيء منه » ـ أي : من ماله ونحو ذلك ـ قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « فليتحلَّله منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ـ أي : قبل يوم القيامة حيث لا ينفع دينار ولا درهم ـ إنْ كان له عمل صَالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه ـ أي : المظلوم ـ فَحُمِل عليه » أي : على مَنْ ظَلمه في عرضه أو ماله وما هنالك .

ومما أكرم الله تعالى به سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالى الإلهام الصادق والخَبَر الواقع

كان سيدي وشيخي والدي رحمه الله تعالى من ذوي الإلهام الصادق ، وكان كثيراً ما يسأله بعض مُحبيه المقربين إليه ، يسألونه عن بعض الأمور الماضية أو الآتية فيقول : قيل لي إنَّ الأمر هو كذا وكذا ؛ ويقع الأمر الذي تَحدَّث عنه كما أخبر ، والحمد لله رب العالمين ـ وهذا باب واسع فكان كثيراً ما يقول : قيل لي كذا أو كذا ويكون الأمر كما أخبر .

وإن صِدق فراسة المؤمن وإلهامه الصادق ، وخبره الواقع ، جميع ذلك تابع لقوة نور الإيمان بالله تعالى ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ،

وتقوى الله تعالى تقوى القلوب ، وتقوى الأعمال والأقوال والأحوال ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ .

روى ابن جرير عن المفسر ابن جريج وغيره في قوله تعالى : ﴿ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ قال : يجعل لكم نوراً تُفرِّقون به بين الحق والباطل . اهـ

وهذا كما تقدم في قوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وقد كان سيدي الوالد رحمه الله تعالى على درجة عالية في التقوى ، وعبادة الله تعالى ، ما رأيته فارغاً قطُّ ، بل جميع أوقاته مليئة كلها بصلوات وقراءات ، وصلوات على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وتسبيح وحمد لله تعالى .

وكان حريصاً على أداء الصلوات في أول وقتها ، مع سنتها القبلية والبعدية ، حتى آخر عمره .

فكان رحمه الله تعالى على مرتبة عظيمة في التقوى والعبادة لله تعالى ، والإكثار من ذكر الله تعالىٰ ليل نهار ، ولقد كنت أسمع منه أنواعاً من صيغ الحمد لله تعالىٰ وتسبيحه وتهليله والثناء عليه ، وتعظيمه سبحانه وتعالى في أواخر أمره ؛ صِيغاً ، ومحامد ، وأدعية جامعة ساطعة لامعة ، تهتز لها القلوب ـ ما كنت أسمعها منه مِنْ ذي قبل ، وتمر عليه أوقات مديدة وعديدة وهو مستغرق في التوجه إلىٰ الله تعالىٰ ، والذل والانكسار له سبحانه ، مع المناجات والابتهالات ، والثناء والمحامد لله تعالىٰ ، رضي الله عنه ونفعنا به ـ آمين .

وكان كثيراً ما يخبرنا عن أمور سوف تجري بعدُ ، فإذا هي تقع كما أخبر تماماً .

وكان رحمه الله تعالى يُوصي ويحثُّ الناس على التقوى لله تعالى في السر والعلانية ، ويُبَيِّنُ لهم أنَّ مَنْ أراد أن يُيسِّر الله تعالى له أمور الدنيا والآخرة فعليه بتقوى الله تعالى ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣ ﴾ .

ومَن أراد أن يكون الله تعالى معه بالنصر والتأييد ، والتسديد والتوفيق ، فعليه بتقوى الله تعالى .

فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ .

ومَن أراد حُسن العاقبة في أموره فعليه بتقوى الله تعالى ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ .

وَمن أراد الولاية والأمان ومقام المقربين فعليه بتقوى الله تعالى ، فإن الله تعالى قال : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ﴾ .

وإن الكرامة عند الله تعالى ، والأفضلية عنده سبحانه إنما ذلك هو تابع للتقوى ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ

خَبِيرٌ﴾ أي : هو أعلم بمن أتقى ، ومَنِ الذي هو أتقى .

وإنَّ أتقى الأتقياء من الأولين والآخرين ، وأكرمهم على الله تعالى ، وأفضلهم عنده ، هو إمام المرسلين ، وخاتم النبيين ، وحبيب رب العالمين ، سيدنا محمد رسول الله تعالى ، الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ، وقد أمره الله تعالى أَن يُحدِّث بنعمة ربه عليه قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ، ومِنْ جُملة ما حدَّث به وأعلنه : أنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له » الحديث .

ومن المعلوم أنَّ التقوى هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي : وأوصيناكم يا أمة محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم جميعاً ﴿ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ .

كما أنَّ التقوى هي وصية سيدنا رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لجميع أمته ، إلى يوم الدين ، كما قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في موعظة : « أُوْصيكم بتقوى الله عز وجل ، والسمع والطاعة » الحديث .

اللهم اجعلنا نخشاك كأننا نراك ، وأسْعِدنا بتقواك ، ولا تُشقنا بمعصيتك ، يا أرحم الراحمين .

وإن تقوى الله تعالى بها النجاة في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى : ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

كما أنَّ في التقوى النجاة حين المرور على الصراط ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا﴾ ـ أي : في جهنم ـ ﴿ جِثِيًّا﴾ .

وإن صفة أهل الجنة وعنوانهم هو التقوى :

قال الله تعالى : ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بكرامة سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ۝٣٣ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ ﴾ .

وقد رأيت والدي الكريم في المنام بعد وفاته بيوم ، رأيته جالساً في بيته الذي كان خاصاً به ، عليه ثياب جميلة جداً ، متكئاً علىٰ أريكته ، فأتيته وسلّمت عليه ، وقبلت يديه ـ وأنا أعلم أنه متوفىٰ ـ فقلت : يا والدي أخبرني عما أعطاك الله تعالىٰ ؟ .

فقال لي : أُنظر إليّ ـ فجعلت أنظر إليه فإذا هو يكبر ويعظم ويعلو ، حتىٰ صار عالياً جداً ، فقال لي : إرفع رأسك وانظر إليَّ واسمع ما أقول :

قد أعطاني الله تعالىٰ مِنْ كل ما أعطىٰ أكابر العلماء العاملين ، ومن كل ما أعطىٰ أكابر أوليائه الصالحين . والحمد لله .

فقلت في نفسي : أنت أهل لذلك .

وهذه الرؤيا كانت واضحة جلية ، لا تزال علىٰ مشهد مني ومسمع لقوتها . والحمد لله ، وقد أعقبتها وتتابعت رؤياه في المنام ، وكلها فيها بشائر وكرامات .

ومِنْ جملة ما رأيته في المنام : أَنّ جميع كُتبي التي أجمعها هي تعرض عليه قبل أن أطبعها ، وقد رأيت بعض كتبي في يده وهو يبحث فيها ، ونَبَّهني إلىٰ مسألة وقد انتبهت إليها . والحمد لله رب العالمين .

ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى ورضي عنه

رأىٰ في المنام ـ وكان ذلك في أواخر عمره رأى في المنام ـ أنَّ النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أمره أن يَفتح وينشىء مدرسة شرعية ، تُدَرَّسُ فيها علوم الشريعة .

وتحدَّث بذلك في مجالسه مع بعض المحبين من الإخوان ، وهمَّ بذلك ، وعزم على ذلك ، وكان قد اعتراه وجع الركبتين كما هو عادة الطاعِنين في السنّ ، فالتزم البيت ، ووكلني بدروسه رحمه الله تعالى ، ولكن لم تزل الهمة ، والعزم الصادق على افتتاح مدرسة شرعية ، وحرَّضني على ذلك ، ونشَّطَني وحثَّني على ذلك ، فما مضت مدة إلا وقد يَسَّر الله تعالى عليَّ فعل ذلك ، فبدأت ترتيب ما يتطلبه أمر افتتاح مدرسة شرعية ، تدرَّس فيها العلوم الشرعية .

فبدأت في ترخيص إنشاء جمعية تقوم بحاجات المدرسة ونفقاتها ، وقد يَسَّرَ الله تعالى ترخيصها ، وهيّأ لها أعضاء مؤسسين إداريِّين أكفاء

أتقياء ، تولوا أمور الجمعية ، وقاموا فيها بعزم وصدق وبذل ، فجزاهم الله تعالى خيراً ، والحمد لله رب العالمين .

ثم توفي سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالى ولما تتم صفوفها .

ثم إنه بعد ما كمل تشكيل المدرسة على مدى سنوات ستة متتابعة ، وكمل تنظيمها ، وتمت صفوفها الستة ، وبعدما عُدِّلت شهادتها لدى جامعة الأزهر ، وتمَّت أمور المدرسة من جميع أطرافها ، رأىٰ بعض تلامذة والدي الكريم الملازمين له ـ وكانت له دروس يُلقيها في المدرسة ـ رأى في منامه سيدي الوالد الكريم في المدرسة ، فسأله عن مجيئه ؟ ! فقال له سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى : الآن أتممتُ لكم أمور المدرسة والحمد لله . اهـ .

وهذه الرؤيا وغيرها من الرؤيا زادتني طمأنية ويقيناً أن لسيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى ورضي عنه اهتماماً كبيراً في افتتاح مدرسة جمعية التعليم الشرعي ، وله معاونة وجهد في إتمامها وإكمالها ؛ حتى بعد وفاته رحمه الله تعالى ، ليحقق ما أمره به النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم كما تقدم في رؤياه .

ففكرة افتتاح المدرسة ، وإتمام إنشائها وإكمالها ، هي فكرته رحمه الله تعالى ، ورغبته الشديدة في امتثال أمره صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وقد تمّت وكملت بنيته الصادقة ، وهمته القوية ، ودعواته وتوجهاته ، حتى بعد وفاته رحمه الله تعالى ، ونفعنا به والمسلمين أجمعين ـ آمين .

وإنني لأحمد الله تعالى ربَّ العالمين أنه سبحانه وتعالى جعلني واسطة في تنفيذ نيته ورغبته ، وطاعته لأمر النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم تسليماً .

ولا تزال إمداداته وتوجهاته ، ودعواته ، تتوالى وتتابع ، فافْتَتَحتْ جمعية التعليم الشرعي داراً لحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ، ثم داراً لأجل تعليم القراءات ووجوهها عن طريق الشاطبية وعن طريق الطيبة ، وقد تخرج منها ولا يزال يتخرج قراء كثيرون ، يُجِيدون القراءات ، والحمد لله رب العالمين .

ومن المعلوم عند علماء الشريعة أَنّ علم القراءات وُوُجوهها هو فرض كفائي ـ أي : من جملة الفروض الكفائية ـ التي إذا قام بها وتعلمها البعض الكافي سقط الإثم عن الأمة ، وإذا لم يتعلمها البعض الذين فيهم الكفاية فالأمة كلها آثمة ومسؤولة يوم القيامة ، فقضية علم القراءات قضية شرعية مهمة ، وهو من جملة الفروض الشرعية الكفائية ، لها اعتبارها في الشريعة .

ثم إن عناية سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى واهتمامه بتقوية العلوم الشرعية ؛ ذلك أمر مستمر بعد وفاته رحمه الله تعالى .

فبعد عودتي من المدينة المنوَّرة بأنواره صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، التي شرفني الله تعالى وأكرمني بالإقامة فيها مدة تقرب من أربع سنين والحمد لله رب العالمين .

فبعد أن عدت إلى حلب ، وعدت إلى دروسي في المدرسة الشعبانية خاصة درس تفسير القرآن الكريم ، والحديث الشريف وعلم المصطلح ، فبعد مضي مدة على ذلك رأيت في المنام أني في غرفة التدريس التي أقرأ فيها تفسير القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، فبينما أنا جالس فيها وإذا بسيدي الوالد الكريم ، ومعه فضيلة المحدث الكبير ، والعلامة الشهير ، الشيخ السيد بدر الدين الحسني رحمهما الله تعالى ، ونفعنا بهما ؛ رأيتهما قد دخلا المدرسة ، وأقبلا نحو غرفة التدريس التي أنا جالس فيها ،

فقمت مُسرعاً واستقبلتهما ، فدخلا الغرفة ، وإذا بالغرفة هي واسعة كبيرة ، فيها الأسرَّة والكراسي غير ما هي في اليقظة ، فجلسا في الغرفة وأقبلا إليَّ وسلَّما عليَّ ، وقبَّلت أيدهما ، ورحَّبت بهما ، ثم قالا لي : أنتَ لِم لَمْ تفتح باب الإجازات في الحديث النبوي الشريف ؟ فسكتُّ .

فقالا لي : افتح باب الإجازات في الحديث النبوي الشريف ، وسوف يقصدك كثيرون ، والآن يأتيك رجلان لأجل أن تجيزهما ونحن جلوس .

وإذا برجلين من أهل العلم لَمْ أعرفهما في اليقظة ، فقال لي سيدي الوالد الكريم ، والمحدث العلامة الشيخ السيد بدر الدين : أجزهما فأجزتهما على مَسْمع منهما ومشهدهما رحمهما الله تعالى ، فسُرَّا بذلك وفرحا . والحمد لله رب العالمين ، ودعوا الله تعالى لي ، وأطالا الجلوس في غرفة التدريس والحمد لله .

فاستبشرتُ وسُرِرت ، وأيقنت أنّ سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى ، والمحدث الكبير فضيلة الشيخ السيد بدر الدين الحسني رحمه الله تعالى ، وأمثالهما من العلماء والأولياء هم لا يتركوننا ، بل لا تزال عنايتهم ودعواتهم ، وبركاتهم محيطة ومتصلة لا تنقطع . والحمد لله رب العالمين .

أولئك أشياخي فجئني بمثلهم إنا جمعتنا يا أخيَّ المجامع

ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى أنه حج بيت الله الحرام وزار رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام عدة مرات مع إطالة المدة في ذلك

قد حج سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالى ثلاث مرات ، وقد أكرمني الله تعالى بأن حَجَجت معه حجته الأخيرة الثالثة ، وكان جاوز التسعين ، ووكلني في دروسه ، وَحَجَّتي معه رحمه الله تعالى هي الحجة

الأولى بالنسبة لي ، وقد خدمته في حجته وطوافه ، وسعيه ، ووقوفه في عَرفة ، وتنقلاته إلى المزدلفة ومنى وما هنالك ، واكتسبت الكثير من دعواته .

وكان في صحبته ومرافقته وخدمته الرجل الصالح ابن الصالح السيد الحاج محمد[1] بن الحاج صالح الططري ، وابنه الشاب الناشئ في طاعة الله تعالى السيد الحاج كامل رحمهم الله تعالى أجمعين .

وكان في صحبته وخدمته أيضاً المحب الصادق لسيدي الوالد ، الملازم دروسه ومجالسه المرحوم الشيخ عبد اللطيف البادنجكي التقي المخلص ، وقد أدركت صحبته وملازمته لسيدي الوالد الكريم منذ كنت صبياً صغير السن ، وقد رافق لسيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ في حجته الأولىٰ والثانية والثالثة .

وكان الشيخ عبد اللطيف رحمه الله تعالىٰ ساعياً جُهده في أنواع الخير وأعمال البر ، وفي معاونة الفقراء وأصحاب الحاجات ، فما قصده صاحب حاجة إلا أجابه ، وقد ألزم نفسه في كل يوم بخدمة الفقراء والمساكين ، ولا سيما المرضىٰ والعجزة ، وفي قضاء حوائج المحتاجين ؛ من ضحوة النهار الصغرىٰ إلىٰ وقت الظهيرة ، فيحمل المرضىٰ الفقراء بسيارته إلىٰ الأطباء والمختصين والمستشفيات ، ويؤمن لهم العلاج ، ويبذل في سبيل ذلك المال الكثير مخلصاً ، يبتغي بذلك رضا الله تعالىٰ ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم .

---

(١) التقي الصادق ، والمنفق الأموال الكثيرة في معاونة العلماء الأعفاء ، الذين هم في حاجة ، ومعاونة الرجال الصالحين ، لا سيما الذين كبرت سنهم ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، وكان إنفاقه عن طريق سيدي الوالد الكريم ، كما سأبين ذلك فيما يأتي إن شاء الله تعالىٰ .

وكان بستانه ـ ويسمىٰ الكرم ـ مَضَافَةً ، فكثيراً ما كان يصنع الولائم ـ كل حين وآخر ـ ويدعو سيدي الوالد الكريم وإخوانه إلىٰ بستانه العامر ، وهناك يكون وقت الضحوة قد صنع لهم الطعام ـ أي : الفطور ـ ويبقون حتىٰ قبيل الغروب ، ويتناولون العشاء عنده هناك ، رحمه الله تعالىٰ ـ آمين .

وكان في مرافقة سيدي الوالد الكريم عدة من إخوانه الكرام رحمهم الله تعالى ، وقد شاهدوا عدة كرامات لسيدي الوالد رحمه الله تعالى في مناسبات متعددة أذكر بعضاً منها :

كان السفر إلى الحج عن طريق البر أَوِ البحر ، وكان سيدي الوالد الكريم سفره إلى الحج عن طريق البحر ، والركوب في الباخرة من الشاطئ في مدينة بيروت ، إلى الشاطئ في جدة ، أو الينبع ، فلما كانت الحجة الثالثة وكنت معه ، أحب والدي الكريم أن يكون السفر من حلب إلى بيروت عن طريق السكة الحديدية ، لكن في الأتبوس السريع ، وكان الأتبوس يوصل المسافرين من حلب إلى طرابلس ، وَمِن طرابلس إلى بيروت يركبون في سيارة كبيرة تابعة لمحطة سكة الحديد .

فركب سيدي الوالد الكريم في الأتبوس وجميع الإخوان المرافقين له في الدرجة الأولى ، وقد وسعتهم وامتلأت بهم ، حتى وصلنا إلى طرابلس بعد دخول وقت العصر ، فإذا بسيارة المحطة التي تحمل الركاب إلى بيروت هي جاهزة ، والسواق ينتظر الركاب ، فقال : اركبوا ، فقيل له : نريد أن نصلي صلاة العصر ، فأبىٰ وقال : تصلون بعدُ ، وقال : إنني أمشي على الدقيقة ، وأنا مسؤول ، فركبنا وقلنا : لا بد له من وقفة في الطريق فنصلي العصر .

وهكذا ركبنا في السيارة وهي كبيرة ، فيها من لا نعرفهم ، وساق السيارة ، فلما كنا في بعض الطريق قال لي والدي الكريم : يا عبد الله خذ

الإبريق واملأه ماءً لنتوضأ ونصلي العصر قبل أن يضيق الوقت ، فقلنا للسواق : قف قليلاً حتى نصلي صلاة العصر ، فأبى وأعرض وقال : إنه محاسب على تأخر دقيقة ، فانتظرنا مدة ، حتى إذا قرب وقت الغروب قال سيدي الوالد الكريم بشدة : يا عبد الله املأ الإبريق ماءً للوضوء ـ وكان معنا إبريق صغير ـ وائتني به نتوضأ ونصلي صلاة العصر ، فما انتهى من كلامه معي وإذا بثلاثة من الشرطة واقفون على الطريق مِنْ بعيد ، ورفعوا أيديهم يشيرون إلى سواق السيارة بالوقوف ، فخفض السير حتى وقف عندهم ، فجاؤوا إليه وقالوا : نريد التفتيش ، فأخرج ورقة رسمية بأنها فتشت في المحطة ، فضربوه على وجهه ، وقالوا له : انزل من السيارة ؛ فنزل .

فقال لي سيدي الوالد : إملأ الإبريق ماءً ، وإذا بأنبوب الماء يتدفق بالماء ، وقالوا للركاب : يا حجاج انزلوا من السيارة ؛ فنزلوا ، وتوضؤوا ومددنا السجادات ، وأذنت وصلينا صلاة العصر بجماعة ، وجلسنا وراء الصلاة نأتي بأوراد الصلاة حتى أتممنا ، فجاؤوا وقالوا : قوموا يا حجاج اركبوا وإذا بهم ـ أي : الشرطة ـ غابوا عن الأعين ، في حين أنهم ما معهم سيارة ، ثم ركب سواق السيارة وساق بسرعة ، وفي طول الطريق جعل يسب الشرطة ويشتم ويقول : إنه مضى عليه كذا سنة في هذه الوظيفة وَلَمْ يَرَ مَنْ يُوقفه لأنه نظامي ، ومعه أوراق نظامية في التفتيش ، وأخذ يقول : هذه أول مرة في حياتي جَرت معي ، وَجَعلت أنا والإخوان نقول في أنفسنا : هؤلاء هم ملائكة ، تمثَّلوا بصورة الشرطة لو كان يعقل ، فلما لَم يَقِف بالاختيار أوقفه سيدي الوالد الكريم بالكره والاضطرار .

وكان وراءنا في السيارة رجل غريب ليس من مدينة حلب ، فلما سمع من والدي الكريم يقول لي : أريد أن أتوضأ ونصلي العصر ـ لما سمع

ذلك قال في نفسه : اليوم أعرف الشيخ محمد نجيب سراج الدين هَل هو وليٌّ كما يقول الناس أم هو كلام لا حقيقة له ، فأسرَّها في نفسه ، فلما كان ما كان قال لبعض إخوان سيدي الوالد الكريم : إنّ الشيخ محمد نجيب سراج الدين هو حقاً ولي الله تعالىٰ ، فقد اضطر وأُكره السواق مَعَ عناده ولُؤمه وخبث نفسه ؛ أكره علىٰ الوقوف ، وأيضاً وجود كثرة الماء الذي توضأ منه جميع الرفقاء .

ولا شك أن هذه الواقعة هي كرامة ، ولكن هي بالنسبة لما كنا نشاهد منه ، أو نسمعه منه هي أمر جزئي ، ويرحم الله تعالىٰ الإمام اللقاني صاحب جوهرة التوحيد حيث يقول :

وأثبتن للأوليا الكرامة وَمَن نفاها فانبذن كلامه

ثم إن سَيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالىٰ بعد الانتهاء من أداء مناسك الحج والعمرة ، أمر بالإسراع إلىٰ زيارة السيد الأعظم ، والحبيب الأكرم سيدنا محمد صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، إمام الأنبياء والمرسلين ، وخاتمهم أجمعين .

وكان الطريق بين مكة المكرمة والمدينة المنورة غير مُزَفَّت ، بل هو ترابي وقتئذٍ ، وقد تهيَّأ جميع إخوان سيدي الوالد الكريم للذهاب مع سيدي الوالد الكريم إلىٰ المدينة المنورة ، فركبنا في سيارة كبيرة ـ باص واسع يستريح فيه الراكب تمام الراحة ـ واستغرق قطع المسافة بين الحرمين وقتئذٍ ثلاثة أيام ، فكنا نسير في النهار ، فإذا قرب المساء كُنا نبيت في مخيمات مُعدَّة للحجاج والزوار ، وفيها أنواع من الأطعمة : لحم الضأن المشوي ، والسمك المشوي ، وغير ذلك ، وفي المخيمات أسرَّة للجلوس والنوم .

فبينما نحن في نصف الطريق إلىٰ المدينة المنورة وقفت السيارة ، وقال السواق : الآن قد انقطعنا فإن موضع ماء السيارة قد انخرق ـ ويسمىٰ الدابُّو ـ وما عاد يَسْتَقر فيه شيء من الماء ، وهذا يحتاج إلىٰ تصليح ، ويحتاج إلىٰ لِحَام بواسطة كما هو معلوم ، وجميع ذلك لا يوجد إلا في المدينة المنورة ، فَننتظر حتىٰ تمر سيارات فارغة وتوصلنا إلىٰ المدينة المنورة ، فلما سمع سيدي الوالد الكريم بذلك كرب لذلك ، وتوجه إلىٰ الله تعالىٰ وقال لبعض إخوانه الذين معه : قم فابذل جهدك وفكر في طريقة تحفظ الماء ، وتسد الخرق .

فقال : يا سيدي ليس هناك طريقة إلا أن آخذ كمية من التمر الذي معنا ، وألينها ، وألصقها فوق الخرق ، وكلما سقطت اللصقة وضعنا غيرها إلىٰ أن نصل إلىٰ المدينة المنورة .

فقال سيدي الوالد الكريم : ضع اللصقة فوق الخرق ، واذكر اسم الله تعالىٰ [بسم الله الرحمن الرحيم] ففعل ذلك وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، وملأ الماء في دابُّو السيارة ، فلم يسل منه قطرة ، وساق السواق السيارة علىٰ عادته ، ولم يحصل شيء ، وبقيت اللصقة في موضعها مُحكمة حتىٰ وصلنا المدينة المنورة بسلام ، فبعد وصولنا ونزولنا من السيارة سقطت اللصقة . والحمد لله رب العالمين .

فلما وصلنا المدينة المنورة بأنوار المصطفىٰ صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وكان المسجد النبوي الشريف علىٰ عهده الأول قبل التوسعة ، فنزلنا عند رجل من أهل البيت الكرام له دار ملاصقة للمسجد النبوي الشريف ، وهي واسعة ومفروشة فرشاً عربياً ، وهي ملاصقة للمسجد النبوي الشريف ، فكلما دخل وقت الصلاة نذهب مع سيدي الوالد الكريم إلىٰ المسجد فنصلي مع الجماعة . والحمد لله رب العالمين .

وأقمنا في المدينة المنورة عشرة أيام ، وصلواتنا كلها في المسجد النبوي الشريف . والحمد لله رب العالمين .

وعلىٰ تمام مُضي عشرة أيام في المدينة المنورة ، آن أوان مجيء الباخرة إلىٰ جدة لتنقل الحجاج والزوار إلىٰ بيروت علىٰ مراحل ، الأولىٰ والثانية ، فباعتبار أنّا جئنا فيها إلىٰ جدة في أول مرة فنحن نعود فيها إلىٰ بيروت في الرحلة الأولىٰ ، ولو أردنا أن نبقىٰ في المدينة المنورة حتىٰ موعد الرحلة الثانية فإنه ممكن وميسَّر ، وبين الرحلتين أسبوع كامل ، فرغب بعض الذين جاؤوا معنا في الباخرة أن يبقوا إلىٰ الرحلة الثانية ، وهنا عُرِضَ الأمر علىٰ سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالىٰ ـ وكان ذلك بين المغرب والعشاء ـ لعله يرضىٰ بالتأخر إلىٰ الرحلة الثانية ، فهنا سكت سيدي الوالد الكريم مدة ، وهو متوجه إلىٰ الله تعالىٰ أن يلهمه ما هو الخير والأصلح ، ثم بعد ذلك قال جازماً وحازماً : نذهب غداً إلىٰ جدة ، ونرجع في الرحلة الأولىٰ كما جئنا في الرحلة الأولىٰ ، ولا نتأخر ولا نتأخر ، وجعل يؤكدُ ذلك عليَّ ، وكأنه عاين ما سيجري بعدُ .

فركبنا إلىٰ جدة ومعنا جميع إخوان الوالد الكريم الذين جاؤوا معه ، ووصلنا إلىٰ جدة وإذا بالباخرة تنتظر الركاب ، وهكذا ركبنا في الباخرة متوجهين إلىٰ بيروت ، وكانت الباخرة سريعة تقطع المسافة من جدة إلىٰ بيروت في ثلاثة أيام ونصف اليوم ، وتعود إلىٰ جدة كذلك .

وهنا بعدما وصلنا إلىٰ جدة وركبنا في الباخرة ، صار بعض الناس الذين تأخروا إلىٰ الرحلة الثانية يتكلم : ما بال الشيخ يستعجل في السفر والرجوع إلىٰ بلده ، هلاَّ تأخر وبقي أسبوعاً في المدينة المنورة ، ريثما تعود الباخرة في الرحلة الثانية .

ثم إنهم بعد أسبوع سافروا من المدينة المنورة إلىٰ جدة نظراً إلىٰ أن الباخرة قد حان وقت عودتها من بيروت إلىٰ جدة ، لتحمل الرحلة الثانية .

فجعلوا ينتظرون عودتها ، وقد آن وقت عودتها ولم تعد ، فجعلوا ينتظرون ويقولون : غداً تأتي فإذا جاء الغد ولم تَعد الباخرة يقولون : تأتي بعد ، وهكذا بقوا ينتظرون الباخرة ما يقرب مِنْ عشرين يوماً ، وقد لقوا في ذلك مَصاعب وَمَتاعب ، فجعلوا يلومون أنفسهم علىٰ تأخرهم ، وعدم أخذهم برأي سيدي الوالد الكريم واقتدائهم به .

وذلك أنه بعدما وصلت بنا الباخرة إلىٰ بيروت جاءها أمر من مديرية شركة الباخرة بالإسراع إلىٰ بلد كذا لأمر اضطراري عارض مهم ، ثم بعد قضاء تلك المهمة الضرورية عادت إلىٰ جدة لتنقل بقية الركاب إلىٰ بيروت .

فكان سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالىٰ من أهل الإلهام الصادق ، وكثيراً ما كان يقول : قيل لي الأمر كذا وكذا ويكون كما قال .

وقد حدثني الذين كانوا معه في حجته الأولىٰ والثانية ، حدثونا عن ما شاهدوا من الكرامات وخوارق العادات المتعددة والمتنوعة ، والحمد لله رب العالمين .

وإنني لأحمد الله تعالىٰ رب العالمين الذي وفقني لخدمته في حجته الثالثة ، وقد كبرت سنه ، وضعفت قواه ، فكنت أخدمه ما استطعت ، وأكتسب من دعواته وبركاته وتوجهاته ، وكان يَهمه أمري كثيراً ، ويدعو الله تعالىٰ بدعوات عظيمة ، وينشطني وينهض بهمتي ، ويبشرني ببشائر كبيرة وكثيرة .

كما أني أحمد الله تعالىٰ الذي وفقني للحج مع والدتي الكريمة الصالحة التقية ، الطاهرة الزكية ، وقد كان الوقوف في عرفة يوم الجمعة في حجتي معها ، وقد خدمتها ، واعتراها المرض ، فكنت أقوم بشأنها ، واكتسبت الكثير من دعواتها ومرضاتها ، فكنت أطلب منها أن تأذن لي بتقبيل رجليها فتمتنع ، فكنت أقبل رجليها علىٰ حين غفلة منها ، ولما انتهينا من أعمال الحج ، وتوجهنا للزيارة الشريفة ، كنت أُكثر من طلب دعائها لي أمام المواجهة الشريفة ، وكانت تدعو لي كثيراً . والحمد لله رب العالمين .

ومن إكرام الله تعالى لسيدي الولد الكريم رحمه الله تعالى

قد أكرم الله تعالى سيدي وشيخي والدي الكريم رحمه الله تعالى ، وتفضل عليه بأنواع من الفضائل والمكرمات ، وأنواع من القربات ورفعة الدرجات ، وعلو المقامات .

فقد رزقه الله تعالى العلم النافع ، ووفقه الله تعالى للعمل الصالح ، ووفقه لفعل الخيرات والمبرات ، وأعطاه الله تعالى عمراً طويلاً مباركاً ، مليئاً بالعلم النافع وتعليمه ، وتوسعه في نشر علوم تفسير القرآن العظيم ، ونشر الأحاديث النبوية ، والتوسع في شرحها في دروسه ومحاضراته اليومية ، حتى يوم الجمعة ويوم الثلاثاء ، وكان درس يوم الجمعة ويوم الثلاثاء يقرؤهما بعد صلاة العصر في جامع بانقوسا ، واكتفى بالتدريس في جامع بانقوسا بعد صلاة يوم الجمعة ، مع الاستمرار على دروسه في الجامع الأموي الكبير يوم الاثنين ، وفي جامع الحموي بقية أيام الأسبوع كلها صباحاً .

ومن المعلوم أن كُلاًّ من العلم النافع ، والعمل الصالح ، وتعلم علوم

الشريعة وتعليمها ، ونشر علم التفسير وعلم الحديث النبوي الشريف ، وتعاليمهما ، والتوسع في ذلك ، وما يترتب على ذلك من نفع العباد ، وإصلاح أمور دينهم ودنياهم ، وحسن أخلاقهم ، وتنشيطهم للأعمال الصالحة ، والبعد عن المحرمات وما هنالك ، هذا فيه ثواب عظيم ، وأجره عند الله تعالى كبير ، كما جاء ذلك في الكتاب والسنة . والحمد لله رب العالمين .

أما العلم النافع ، وهو : علم الشريعة ، وما تشتمل عليه من عقائد إيمانية ، وأمور عملية وقولية ، وبيان أحكام الحلال والحرام ، والأوامر والمناهي وما هنالك ، فهذا العلم هو الميراث النبوي المحمدي صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، الذي من أخذه أخذ بحظ وافر كبير ، وفضله عظيم لا يعلم قدره إلا الله تعالى .

جاء في الحديث ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم يقول : « من سَلَكَ طريقاً يلتمس فيه علماً : سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع ، وإنّ العالم ليستغفر له مَنْ في السموات ومَن في الأرض ، حتى الحيتان في جوف الماء .

وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب .

وإنّ العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لَم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ؛ إنما وَرَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[1] .

وروى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه ، وابن حبان في (صحيحه) والبيهقي . اهـ وانظره في (تيسير الوصول) و(جامع الأصول) .

صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

وروى ابن ماجه وغيره ، عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه رضي الله عنهم ، أن النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم قال : « مَن عَلَّمَ علماً فله أجر من عَمِلَ به ، لا ينقص من أجر العامل شيء »[1] .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « يُجاء بالعالِم والعابد ، فيقال للعابد : أُدخل الجنة ، ويقال للعالم : قِف حتى تشفع للناس »[2] .

هذا وقد ذكرت في مناسبات متعددة جملة من الأحاديث الواردة في فضل العلم والعلماء . والحمد لله رب العالمين .

وأما فضل نشر الأحاديث النبوية وتعليمها ، وتبليغها للناس ، فقد جاء في ذلك جملة كبيرة من الأحاديث الشريفة النبوية عنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، أذكر طرفاً منها :

جاء في الحديث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « نَضّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه ، فَربَّ مُبلَّغٍ أوعى من سامع »[3] .

قال الحافظ المنذري : « نَضّر » بتشديد الضاد المعجمة وتخفيفها

---

(١) كذا في (الترغيب) .

(٢) قال في (الترغيب) : رواه الأصبهاني وغيره ، ثم أورد نحوه من طريق البيهقي وغيره .

(٣) قال في (الترغيب) : رواه أبو داود والترمذي ، وابن حبان في (صحيحه) إلا أنه قال : « رحم الله امرءاً » وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . اهـ .

حكاه الخطابي ، قال : ومعناه : الدعاء بالنضارة ، وهي النعمة والبهجة والحُسن ، فيكون تقديره : جَمَّله الله تعالى وزيَّنه . وقيل : غير ذلك. اهـ

وقد قال كثير من العلماء المتقدمين : مِنْ علامة المحدثين نُور في وجوههم ، وحسن وجمال ، بسبب دعوته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لهم بالنضارة .

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلَّغه غيره ، فَرب حامل فِقْه إلى مَنْ هو أفقه منه ، وَرُب حامل فقه ليس بفقيه » الحديث .

وروى الطبراني في (الأوسط) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « اللهم ارحم خلفائي »

قلنا : يا رسول الله ومَنْ خلفاؤك ؟

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « الذين يأتون مِنْ بعدي ، ويروون أحاديثي ويعلّمونها الناس » .

وقد كان سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى واسع الاطلاع على كتب الحديث النبوي الشريف ، يحفظ عدداً كبيراً من الأحاديث عن ظهر قلب ، حفظاً متقناً ، فكان يُورد في دروسه جملة كثيرة من الأحاديث حسب المناسبة ، مع بيان مُخرجيها دون توقف ، بل كان حاضر المحفوظ ، وينشرها ويبلغها للناس في دروسه بنصّها .

أعماله التعبدية والصالحة المرضية

كان سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالى ذا همة عالية في عبادة الله تعالى ، والعمل الصالح ابتغاء وجه الله تعالى ورضوانه .

فكانت صلواته كلها بالجماعة ، فإنه كان إماماً وخطيباً في جامع

الشيخ سليمان الأيوبي رحمه الله تعالى ، وكان ملازماً للصلاة في الجماعة إماماً في الجامع ، وكان لا يتخلف عن الصلاة في الجامع إماماً ولو كان في أيام الشتاء البارد ، وخاصة صلاة الفجر ؛ فما تخلف عنها قط ، وكثيراً ما كنت وأنا صغير السن دون البلوغ كنت أذهب معه في أيام الشتاء لصلاة الفجر ، فيأتي بالسُّنَّة ثم يجلس ويقرأ ورد الصبح مع الجماعة[1] ، ثم بعد فراغهم من قراءة ورد الصبح يقوم إلى صلاة الفرض ، ويصلي إماماً ، ويطيل القراءة كما هو السنة ، ويقر في صلاة فجر يوم الجمعة سورة السجدة في الركعة الأولى ويسجد لها ، وفي الركعة الثانية سورة الدهر كما هو السنة ؛ مُواظباً على ذلك في كل صلوات الصبح من يوم الجمعة .

وكان يجلس وراء الصلوات ويأتي بأوراد الصلاة المطلوبةِ وراء الصلوات : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والدعاء كما هو معلوم .

وكان حريصاً على عدم التخلف عن الصلاة إماماً في جامع الشيخ سليمان ، حتى إنه رحمه الله تعالى في يوم الاثنين كان يُصلي الظهر إماماً في الجامع ، ثم يتوجه ماشياً إلى الجامع الأموي ليلقي محاضرته ودرسه فور وصوله إلى الجامع الأموي ، وكثيراً ما أكون معه حتى في أيام الصيف الحارِّ ، كان يمشي من جامع سليمان إلى الجامع الأموي ماشياً تحت حر الشمس ، حتى إذا وصلنا إلى سوق الزرب أحد أبواب سوق المدينة أشعر ببرودة ، فإذا فرغ من درس الجامع الأموي ، وجلس في غرفة الجامع بعد الدرس مدة ، فبعد ذلك يرجع ماشياً إلى جامع الشيخ سليمان الأيوبي ليصلي صلاة العصر إماماً ، ولم يزل على ذلك ، حتى جاوز سن الخمس وثمانين وقارب التسعين ، عندها وَكَّلَ بعض الإخوان الملازمين له في

---

(١) ولا تزال نغمة قراءة ورد الصبح وتقاسيمه محفوظة في أذني . والحمد لله رب العالمين .

بعض الصلوات إماماً وكيلاً عنه ، ثم تنازل لي عن الخطبة والإمامة . والحمد لله .

وكانت أوقاته كلها عامرة بالعبادة ، مشغولة بالصلوات المفروضة ، والصلوات النافلة : صلاة الضحى ، وقيام الليل ، والأوابين بين المغرب والعشاء ، كما أنه رحمه الله تعالى كان مواظباً على تلاوة القرآن الكريم ، وأوراده من الصلاة على النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلّم ، ويكثر من صيغة الصلاة العظيمية ، والتسبيح والتحميد والتهليل ، وكان ملازماً لقراءة كتب الحديث النبوي الشريف عامة ، وللصحيحين خاصة ، فهو على اتصال وملازمة للصحيحين .

وكان رحمه الله تعالى واسع المطالعة في جميع مطوَّلات كتب العلوم الشرعية ، سواء في ذلك كتب العقائد والتوحيد ، وكتب الأحكام الشرعية ، وكتب المعارف الإلٰهية التي جمعها كبار أئمة القوم العارفين ، الغارفين من بحر إمام الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين ، وعلينا معهم ـ آمين .

وكان رحمه الله تعالى أكثر مطالعاته وأقوى اهتمامه في تفسير القرآن الكريم وعلومه ، مع التدبُّر ، وقد أعطاه الله تعالى فهماً واسعاً من الآيات القرآنية ، مؤيَّداً بالأحاديث النبوية الشريفة ، وقد جمع في مكتبته أنواعاً من كتب التفاسير للعلماء المحققين المتقدمين رحمهم الله تعالى .

وكان سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى واسع الاطلاع على شروح كتب الأحاديث النبوية عامة ، ومطولات شروح صحيح البخاري ومسلم .

وقد متَّعه الله تعالى ببصره حتى آخر عمره لم يحتج إلى منظار ،

ولا مكبِّر ، وكذلك متعه الله تعالى بسمعه حتى آخر عمره رحمه الله تعالى ونفعنا به .

ولم ينس شيئاً مما يحفظه من القرآن الكريم ، ولا الأحاديث النبوية الشريفة ، وقد سمعته قبيل وفاته بقليل وهو يقرأ جهراً سورة طَه ، فقرأها من أولها إلى آخر ولم يتوقف ، وأنا إلى جنبه أسمع . والحمد لله رب العالمين .

ومما أكرم الله تعالى سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى التوسع في العلم النافع وتعليمه وطول العمر مع حسن العمل والصدق والإخلاص لله رب العالمين

لقد أكرم الله تعالى سيدي الوالد رحمه الله بأنواع المكرمات ، ورفعة الدرجات ، ومن جملة ذلك أن الله تعالى جعله من المعمَّرين الذين طال عمرهم وحسن عملهم ، وعَمّروا أعمارهم بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، والسعي وبذل الجهد فيما ينفع عباد الله تعالى في الدنيا والآخرة .

روى الترمذي وغيره ، عن أبي بكرة رضي الله عنه ، أنّ رجلاً قال : يا رسول الله : أيُّ الناس خير ؟ .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « مَنْ طال عمره وحسن عمله » .

قال الرجل : فأيُّ الناس شر ؟ .

فقال : « مَنْ طال عمره وساء عمله » قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « خير الناس مَنْ طال عمره وحسن عمله » رواه الترمذي

وقال : حديث حسن .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أَلاَ أُنبئكم بخيركم » ؟ .

قالوا : نعم .

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « خياركم أطولكم أعماراً ، وأحسنكم أعمالاً »[1] .

وروى أبو يعلى بإسنادٍ حسن ، عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « ألا أنبئكم بخياركم » ؟

قالوا : بلى يا رسول الله

قال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « خياركم أطولكم أعماراً إذا سَدَّدُوا » أي : تمسكوا بالشرع الذي جاء به صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « لا تَتمنَّوا الموت ، فإنّ هول المطْلَع ـ أي : القيامة ـ شديد ، وإنَّ مِنَ السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة » رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، والبيهقي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رجلان مِن قُضاعة أسلما مع رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فاستُشهد أحدهما وأُخِّر الآخر سنة .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه الإمام أحمد ورواته رواة الصحيح ، وابن حبان في (صحيحه) والبيهقي ، ورواه الحاكم من حديث جابر رضي الله عنه وقال : صحيح على شرطهما .

قال طلحة بن عبد الله فرأيت المؤخَّر منهما أُدخل الجنة قبل الشهيد ، فتعجبت لذلك ، فأصبحت فذكرت ذلك للنبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

فقال رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم : « أليس قد صام بعده رمضان ، وصلَّىٰ ستَّة آلاف ركعة ، وكذا وكذا ركعة ؛ صلاة سنَة »[1] .

وروى الإمام الترمذي ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم يقول : « قال الله جلَّ ذكره :

إذا بلغ عبدي ـ أي : المؤمن ـ أربعين سنة عَافَيْتُه مِنَ البلايا الثلاث : من الجنون ، والجذام ، والبرص .

فإذا بلغ خمسين سنة حاسبته حساباً يسيراً .

فإذا بلغ ستين سنة حَبَّبتُ إليه الإنابة ـ أي : الإنابة إلى الله تعالى ـ .

فإذا بلغ سبعين سنة أحبه الملائكة ـ وفي رواية البيهقي : « أحبه الله تعالى ، وأحبه أهل السماء » ـ .

فإذا بلغ ثمانين سنة كُتبت حسناته وأُلقيت سيئاته ـ وفي رواية البيهقي : « قَبِل الله تعالى حسناته ، وتجاوز عن سيئاته » ـ .

فإذا بلغ تسعين سنة قالت الملائكة : أسير الله في أرضه ، وَغَفَر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخّرَ ، وشفع في أهل بيته »[2] .

---

(١) قال في (ترغيب) المنذري : رواه الإمام أحمد بإسناد حسن ، ورواه ابن ماجه ، وابن حبان في (صحيحه) والبيهقي كلهم عن طلحة رضي الله عنه بنحوه أطول منه . اهـ .

(٢) وروى البيهقي والبغوي نحو هذا الحديث ، انظر (الخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة) للحافظ ابن حجر العسقلاني رضي الله عنه .

إنفاقه في سبيل الخيرات والمساعدات

وكان سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى كثير الإنفاق في طرق الخيرات ، والمساعدات المالية وغير المالية .

أما أرحامه فكان يرسل معي كمية من المال في كل يوم جمعة ، ومنهم في كل شهر ـ إلى أرحامه الفقراء ـ يُخرج ذلك من ماله الخاص ، ـ فإنّه كان ميسوراً ، مُرتَّباته الشهرية كثيرة ومباركة ـ فكنت أنا العبد لله أذهب إلى بيوتهم وأعطيهم ، وكنت حينذاك قبل البلوغ . والحمد لله ، وبعد البلوغ أيضاً .

كما أنه رحمه الله تعالى كان يَبعث معي كمية من المال الذي يأتي به بعض[1] إخوانه ومحبيه الصادقين ، ليوزعه والدي الكريم حسب معرفته بالمستحقين الأتقياء الأعفاء ، الذين يَحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، فمنهم بعض أهل العلم الذين كبرت سنُّهم ، وكثرت حاجاتهم ، ومنهم أهل الصلاح والتقوى والعفة ، الذين لا يقبلون الأخذ من غير والدي الكريم رحمه الله تعالى ، فكان يكتب لي أسماءهم وأذهب إلى بيوتهم فيخرج أحدهم إلى الباب أو يُؤذن لي بالدخول عليه إن كان عاجزاً ،

---

(١) وهو العم الكريم ، والرجل الصالح ابن الصالح ، السيد الحاج محمد الططري رحمه الله تعالى ، الحافظ لكتاب الله تعالى ، وقد كان القارئ الشهير والمقرئ الكبير العلامة الشيخ محمد بَيَازيد التقي النقي ، الذي كان يختم في كل يوم ختمة تقرباً إلى الله تعالى ، كان قد طلب منه الحاج صالح الططري والد الحاج محمد أن يأتي إلى بيت الحاج صالح كل يوم لتلاوة القرآن بين المغرب والعشاء ، فيجلس في بيت خاص ، ويجلس معه الحاج صالح والحاج محمد ، وأهل بيته كلهم ، لسماع تلاوة القرآن الكريم ، وكان ذلك سبباً في حفظ الحاج محمد للقرآن الكريم ، ثم حفظ ابنته الصالحة زوجتي . والحمد لله رب العالمين .

فَأبلّغهم سلام سيدي الوالد الكريم ، وأعطيهم كمية من المال التي أرسلها معي والدي الكريم ، وقد أضاف إليها شيئاً من ماله رحمه الله تعالى فيأخذونها وَيَدْعون لسيدي الوالد الكريم رحمهم الله تعالى أجمعين ، ويدعون لي . والحمد لله رب العالمين .

وقد طرقت أبواباً وأبواباً في سبيل ذلك ، وفي توزيع المعونات المالية ، وكلُّ ذلك في صحيفة سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى . ونفعنا به ـ آمين .

الختـــام

تم جمع هذا الكتاب بعون الله تعالى وتيسيره ، في الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٤٢٢هـ وإنني أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم ، بفضل القرآن العظيم ، وَمَنْ أنزله الله تعالى عليه سيدنا محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ذا الخلق العظيم ، أسأله تعالى أن يجعلنا من المتمسكين بما جاء به رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم حقاً : كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وأن يجعلنا من الوارثين له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، ومن المبلغين عنه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ؛ بصدق وإخلاص ، وأن يجعلنا سبحانه وتعالى من المنتظمين في سلك المتبعين له صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : الذين ظفروا ونالوا كمال المطلوب المرغوب فيه والمحبوب .

اللهم إنك قلت وقولك الحق ، وأنت وعدتَ ووعدك الصدق ، أنت قلت يا ربِّ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ ﴾ فها أنا عبدك المسكين ، دعوتك كما أمرتَ فاستجب لي كما وعدتَ ، إنك لا تخلف الميعاد .

يا أكرم مسؤول ، ويا خير مأمول ، ويا مَنْ لا يردُّ سائله ، ولا يُخيِّب آمله ، يا رجاء الراجين ، ويا منتهى رغبة الطالبين .

اللهم وأفِض على سيدي والدي سحائب الرضوان والرحمات ، والخيرات والبركات ، وارفع منزلته في أعلىٰ المراتب والمقامات وعلو الدرجات ، واستجب دعانا يا مولانا بجاه حبيبك الأكرم ، ورسولك المعظم سيدنا محمد صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، وبوجاهته عندك وبتوجهاته إليك صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم .

اللهم وصلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأزواجه أمَّهات المؤمنين ، وذريته ، وأهل بيته الطيِّبين الطاهرين ، وعلينا معهم أجمعين ، وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم . آمين .

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحتوىٰ

الموضوع — الصفحة

المقدمة ٥
مولده رحمه الله تعالىٰ ورضي عنه وعنا به ٦
نشأة سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ والبيت الذي تربّىٰ فيه ٧
كلمة موجزة حول العلامة الكبير والعارف الشهير الشيخ أحمد
الترمانيني شيخ جدي ووالدي رحمهم الله تعالىٰ ١٢
بَدْءُ سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالىٰ في طلب العلم ١٧
عقيدة سيدي الوالد رحمه الله تعالى في باب علم التوحيد ٢١
دراسته لعلم التفسير ٢٨
دراسته علم الحديث الشريف رِوَايَة وَدِرَايَة ٢٩
شيوخه في الحديث ٣٠
تدريسه ودروسه التي أسندت إليه ٣٣
أبحاث سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى في دروسه وبرامجه ٣٤
حول دروسه التي كان رحمه الله تعالى يلقيها في الجامع الأموي وفي
جامع بانقوسا ٣٧
أبحاث والدي الكريم رحمه الله تعالىٰ في علم التوحيد ٥٠
أبحاثه وتقريراته رحمه الله تعالى ورضي عنه حول محبة الله تعالى
ورسوله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وبيان التلازم بين المَحَبَّتَيْن ٥٩
الله تعالى يُحبّ لجماله المطلق ٦٣
الله تعالى يُحب لنواله وإحسانه وإنعامه ٦٤
علامة المحبة الصادقة لرب العالمين جَلَّ وعلا ٧٤
محبة النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ٧٧
كلام أئمة القوم العارفين بالله تعالى الثابت نقله عنهم هو مستمد من
الكتاب والسنة وإنهم مِن أشد الناس تمسكاً بالكتاب والسنة ٨٤

السنة النبوية الشريفة تكفل الله بحفظها كما تكفل بحفظ القرآن الكريم
لأنها بيان له ٩٤
الواجب على المؤمن أن يستسلم لما ثبت مجيئه عن رسول الله
صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وافق هواه أو خالف هوى نفسه ٩٦
تحذيره صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من قوم يأتون من بعده متكبِّرين
يَدَّعُوْنَ الفهم واستنباط أحكام الحلال والحرام من كتاب الله تعالى
ويتركون العمل بماء جاء عن رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم
في أحاديثه ١٠٣
شرف قلب المؤمن وفضائله وخصائصه ووجوب الالتجاء إلى الله تعالى
ودعائه بالحفظ من زيغ القلب ونحوه ١٠٩
قلوب المؤمنين الصادقين فيها سرج مزهرة ومصابيح نيِّرة ١١٤
قلوب المؤمنين ألواح كَتَبَ الله تعالى فيها الإيمان ١١٥
قلوب المؤمنين هي منابت شجرة الإيمان التي تثمر الكلم الطيب
والعمل الصالح ١١٦
قلوب عباد الله تعالى الصالحين آنية رب العالمين ١٣٠
الله تعالىٰ لا ينظر إلى صور العباد وأجسادهم وأموالهم ولكن ينظر إلى
قلوبهم وأعمالهم ١٣١
القلب هو موضع الخشوع لله تعالى ١٣٥
القلب القاسي بعيد من الله تعالى ١٣٨
تعوذه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم من قلب لا يخشع وفي هذا تعليم
للأمة ١٤١
تعليمه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أمته أدعية لتثبيت القلوب على الدين
وحفظها من الزيغ ١٤٢
خوف الصحابة رضي الله عنهم من زيغ القلوب ١٤٤
من صفات السابقين المقربين ١٤٦

الموضوع	الصفحة
تذكَّر واتَّعظ وتبصَّر	١٤٨
قصة أصحاب الغار وتوسلهم إلى الله تعالى بأصدق أعمالهم	١٥٧
البيان المؤكد من رب العالمين أن رسوله سيدنا محمداً صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم أرسله الله تعالى رحمة لجميع العالمين حيثما كانوا وأينما كانوا	١٦٠
رحمته صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم للعالمين في الآخرة	١٦٦
سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو أعظم محمودٍ من الخلق أجمعين هو سيدنا أحمد هو أحمد خلق الله تعالى لله رب العالمين في جميع العوالم	١٧٠
سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو محمود في جميع العوالم وفي الملأ الأعلى والأدنى	١٧٣
سيدنا محمد رسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم هو أحمد الحامدين لله رب العالمين	١٧٦
ومن محامده صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم في التهجُّد	١٨٠
ومن جوامع محامده وتسبيحه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ما يأتي	١٨٠
سيدنا محمد ﷺ هو صاحب لواء الحمد وجميع النبيين تحت لوائه صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين	١٨١
القصيدة الدالية للشيخ العارف الكبير الشهير علي وفا نفعنا الله تعالى به يمدح فيها الحبيب الأكرم والسيد المعظم صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم	١٨٦
شرح سيدي الوالد الكريم لهذه القصيدة الغرَّاء وحبه لسماعها وإنشادها في مجالسه وترغيبه وحثه للمنشدين على حفظها وإنشادها	١٨٧
محبة سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى لسماع المدائح النبوية المحمدية صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم وإكرامه المنشدين وتنشيط	

الموضوع الصفحة
همتهم في ذلك ١٨٨
مواظبة سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى على قراءة قصة المولد
النبوي الشريف وحضوره مجلس قراءة قصة المولد الشريف
وترغيبه في ذلك ١٨٩
فائدة ١٩٣
ومما أكرم الله تعالى به سيدي والدي الكريم رحمه الله تعالىٰ ١٩٤
ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد رحمه الله تعالىٰ ١٩٥
ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد رحمه الله تعالى ١٩٦
ومن شرف المحبة الإيمانية وفضائلها أنّ المرء مَعَ مَنْ أحبّ ٢٠١
من علامة المحبة الصادقة لله تعالى : أن تُحب لله تعالى ، وأن
تبغض لأجل الله تعالى ٢٠٤
المحبة الصادقة لرسول الله صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم توجب محبة
أصحابه صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ٢٠٦
الإيمان الصادق يوجب على كل مؤمن مَحَبّة كُلِّ مؤمن ٢١٠
تنبيه النبي صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم إلى إكرام ذي الشيبة المسلم وتوقير
الكبير والرحمة بالصغير ٢١٢
ومما أكرم الله تعالى به سيدي والدي الكريم الإلهام الصادق والخَبَر
الواقع رحمه الله تعالى ٢١٤
ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى ورضي
عنه ٢١٩
ومما أكرم الله تعالى به سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى أنه حج
بيت الله الحرام وزار رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام عدة
مرات مع إطالة المدة في ذلك ٢٢٢
ومن إكرام الله تعالى لسيدي الولد الكريم رحمه الله تعالى ٢٣٠
أعماله التعبدية والصالحة المرضية ٢٣٣

الموضوع الصفحة
مما أكرم الله تعالى سيدي الوالد الكريم رحمه الله تعالى التوسع في العلم النافع وتعليمه طول العمر مع حسن العمل والصدق والإخلاص لله رب العالمين ٢٣٦
إنفاقه في سبيل الخيرات والمساعدات ٢٣٩
الختام ٢٤١
المحتوى ٢٤٣

وصلى الله العظيم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلّم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين

كتب للمؤلف

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم .
- حول تفسير سورة الحجرات .
- حول تفسير سورة قَ .
- حول تفسير سورة الملك .
- حول تفسير سورة الإنسان .
- حول تفسير سورة الكوثر .
- حول تفسير سورة ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ .
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
- هدي القرآن الكريم إلىٰ الحجة والبرهان .
- هدي القرآن الكريم إلىٰ معرفة العوالم والتفكر في الأكوان .
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها .
- شهادة لا إلٰه إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها .
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة .
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلىٰ مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية .
- التقرب إلىٰ الله تعالىٰ : فضله ـ طريقه ـ مراتبه .
- الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها .
- الصلاة علىٰ النّبي ﷺ : أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها .
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلىٰ الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
- الدعاء : فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن .
- حول ترجمة الإمام العلامة المرحوم محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالىٰ .
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
- مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح ـ حلب : هاتف ٣٦٣٩٣٠٠ ـ ٣٦٢٣٧٥٧ .